فراشة الأميرة الحمراء

تأليف : نبيل خلف
رسم : حلمى التونى



دار الشروق



رواية علمية تهتم بالبيئة للأذكياء من الفتيان والفتيات

(من ١٠ إلى ١٦ سنة)

دار الشروق

فراشة الأميرة الحمراء

رسم : حلمى التونى   تأليف : نبيل خلف



دار الشروق

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

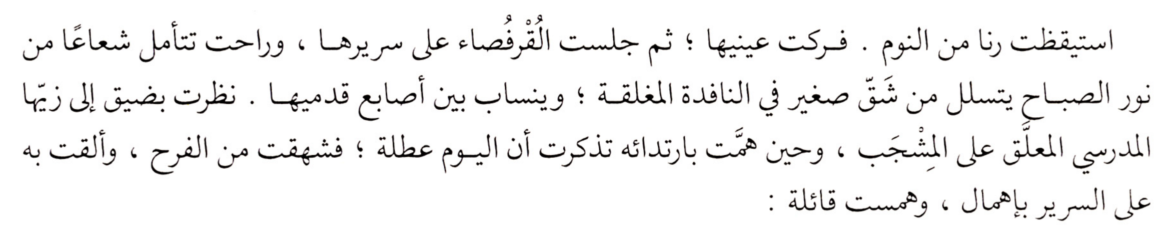
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)
رقم الإيداع ٩٨/١٠٠٥٨
الترقيم الدولى 3 - 0478 - 09 - 977
طبع بمطابع الشروق - القاهرة

إهـــداء

إلى أبي
الذي لا يزال طفلا ولم ألتقِ به حتى الآن



الفراشـــة الملكـــة



استيقظت رنا من النوم . فـركت عينيها ؛ ثم جلست القُرْفُصاء على سريرهـا ، وراحت تتأمل شعاعًا من نور الصبـاح يتسلل من شَقّ صغير في النافذة المغلقـة ؛ وينساب بين أصابع قدميهـا . نظرت بضيق إلى زيّها المدرسي المعلَّق على المِشْجَب ، وحين همَّت بارتدائه تذكرت أن اليـوم عطلة ؛ فشهقت من الفرح ، وألقت به على السرير بإهمال ، وهمست قائلة :

« لقد تلقينا وعدًا من أمِّنا بالتنزه اليوم على شاطىء البحر » .

نظرت نحو سرير أخيها وائل ؛ فرأته يطوِّح ذراعيه كأنه يطير ، ويضمّ شفتيه كرضيع يمتص ثَدْي أمه .

أسرعت رنا نحـو أخيها ، وهزّته من كتفيـه برفق ، فنهض من نومه ، وحـدَّق في وجهها بعينين زائغتين ، وقال لها :

« لقد حلمت بأنني فـراشة ترفـرف حول زهرة تتلألأ أوراقهـا البيضاء مثل النجوم ؛ سألتهـا عن اسمها ؛ فقالت إنها زهرة اللـؤلؤ . . . مددت خُرْطـومي لكي أرتشف رحيقها ؛ قبل أن تغلق تُوَيجها لتنـام عند غروب الشمس ؛ ففـوجئت بمئات من الخفـافيش السوداء تصـدر نعيبًا كئيبًـا ، وتضربني بأذنابها ، وتمدّ ألسنتهـا الطويلـة المستديرة في تُـوَيج الزهرة وتلعق رحيقهـا . أسرعت بالفـرار ، واحتميت بشجرة عملاقـة ذات لون أصهب وأوراق صغيرة ، وظللت أرقب الزهـرة بحسرة . . . كانت كلما أغلقت تُوَيجها لتنام فتحته الخفافيش بأسنانها الحادة قسرًا . أصـدرت زهرة اللؤلـؤ أنينًا خافتًا وانثـالت الدموع من عينيهـا . وتضرعتُ إلى الشجرة العملاقة لتذود عنها ؛ فمدّت فروعها ، وأمسكت بالخفافيش السوداء ، وألْقَت بها في الفضاء .

طرت نحو الزهرة لأمتصّ ما تبقى بها من رحيق ؛ ففتحتْ تُوَيجْها طَوَاعية ، وشعَّ وجهها بالضياء ؛ لكنني تجرَّعت حسرتي إذ لم أجد إلا بضع قطرات من ماء مشبعة بالغبار .

نظرت بأسًى إلى الشجرة العملاقة الصهباء ؛ فهالني شعاع شمس برتقالي ينساب بين وريقاتها الصغيرة ، وتنزلق عليه فـراشة مبرقشة ؛ تومئ إليّ أن أتبعها . طـرت خلفها حتى هبطت في غابة من زهـور اللؤلؤ ؛ كل زهرة فيهـا تشبه الـزهرة التي امتصّ الخفـافيش رحيقها . وكـانت الزهـور تفيض بالرحيق حتـى كاد ينسكب حولها ؛ فأسرعتُ بارتشافه ، وأحسستُ بنشوة لم أعرفها من قبل » .

لم تشأ رنا أن تخبر وائلا بأنها مّرت بحلم مماثل أمس ؛ فلقد حلمت بأنها فراشة بلا جناحين تغرق في مستنقع ضحل ، وتنتشلها من الماء الآسِن فراشة مماثلة لتلك التي رآها وائل في حلمه . لكنها أحجمت عن الكلام ؛ لأن في ذلك ما يخالف اقتناعها بأن النوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام ؛ مثلما أخبرتها أمها !

ساد الصمت بينهما لحظة . و قطعته رنا قائلة :

« فلنوقظْ أمنا ؛ لنذهب إلى شاطىء البحر » .

ارتدى الأخوان ملابس البحر ، وأحضرا القارب المطاطي والنظارات المائية وجميع أدوات البحر الأخرى ، وذهبا إلى غرفة نوم أمهما ؛ فلم يجدا إلا سريرًا خاليًا مرتبًا باردًا ، وكُوبًا تعلقت به قطرات من اللبن المتخثر . جمَّد الإحباط أقدامهما ، وتلفتا حولهما علّهما يجدان رسالة اعتذار توضح لهما الأمر . لكنهما لم يجدا شيئًا يهدىء روعهما .

هَرْوَلت رنا نحو غرفة أمها التي تستخدمها كمعمل لأبحاثها في علم النبات . انتابها شعور عارم بالضيق عندمات رأت براعم وجذور القَرَنْفُل في أنابيب الاختبار تتلوى كالديدان في المحلول الكيماوي ؛ كأنها تحاول التسلق على جُدرَانها الملساء ؛ لتفلت من هذا السجن الزجاجي .

سمعت صرير الباب فالْتَفَتت خلفها لترَى وائلا مقبلاً نحوها مقطب الجبين ويبدو عليه الاكتئاب . قالت له بلهفة :

« هل عثرت على أمي ؟ » .

أجاب وائل وقد دمعت عيناه :

« لقد بحثت عنها في كل ركن من المنزل؛ ولم أجد لها أثرًا » .

صرخت رنا قائلة :

« منذ أن رحل أبي إلى البحار البعيدة وأمي تحنث في وعودها من دون أن تقدم تفسيراً أو مبررًا لذلك » .

رمَق وائل أوراق الشجر الذابلة والمتناثرة على المناضد الخشبية ، وانفتح أنفه تلقائيًا واستنشق الرائحة النفاذة للمحاليل الكيماوية ؛ فانتابته نوبة حادة من السعال ، وأسرع بفتح النافذة ؛ ليستنشق هواء نقيًا .

فإذا بفراشة برتقالية مخططة بالأسود تبسط جناحيها وتطويهما ، وترفرف حوله . حملق وائل بإعجاب إلى جناحيها المزركشين بآلاف الحَراشِف الملونة التي أسدلت ظلالا حمراء وبرتقالية وبنَفْسَجيّة على الجُدْرَان البيضاء ؛ وقال :

« إنها الفراشة التي رأيتها في الحلم ! » .

وهمست رنا بصوت يكاد يكون هَسِيسًا :

« إنها الفراشة الملكة التي انتشلتني من المستنقع ! » .

ابتسمت لهما الفراشة الملكة كأنها نَجْم يومض في سحابة دكناء ؛ وقالت :

« لقد أخبرتني فراشات الأحلام بحلميكما اللذن مررتما بهما أمس ؛ فهل ترحلان معي إلى بحيرة الأحلام ؛ حتي أحقق لكما كل ما تشتهيان من أحلام » .

نظر وائل إلى رنا ، وقال مندهشًا :

« لِمَ أحجمتِ عن ذكر حلمك لي ؟ » .

تجاهلته رنا ، وقالت للفراشة الملكة بغضب واستنكار :

« كيف نرحل معكِ قبل أن نعثر على أمنّا ؟ » .

اهتزت الفراشة الملكة لنبرات صوتها الحادة ووجهها الغاضب ، وطارت نحو أنابيب الاختبار ؛ حتى أوشكت أن تنزلق على حوافها المصقولة ؛ لولا أن التقطها وائل في اللحظة الأخيرة ، ووضعها برفق على كفِّه .

همست الفراشة الملكة في أذن وائل :

« سوف ترى أمك في بحيرة الأحلام في الوقت المناسب . وكل شيء بأَوَان » .

ـ سوف أرحل معكِ حتى ألقاها ؛ لقد اشتقت إليها كثيراً !

زمَّت رنا شفتيها وقالت متأسية :

« كيف تتركني بمفردي في هذا البيت الفسيح ؟ » .

قرض وائل أظافره وقال لأخته :

« لابد من أن أرحل . ويبدو أن أوان رحيلك إلى بحيرة الأحلام لم يأتِ بعد » .

قبَّل وائل أخته رنا في خديها ، وتسلق الخيوط البرتقالية التي أرسلتها الشمس عبر النافذة ؛ إلى أن هبط على إحدى الجزر في أَرَخَبيل الفراشات .





بحـــيرة الأحـــــلام

رأى وائل قوقعًا يخرج من صَدَفته التي كان ينام فيها طَوَال الشتاء ، ويزحف إلى الأمام على حافة قدمه مثل مركبة الجليد ، ويطفىء ظمأه من الحشائش المشبعة بماء المطر ؛ فعرف أن الربيع قد جاء .

ورأى أيضًا براعم الصَّفْصاف والحُور والياسَمين والدَّرْدار تطير فوق بحيرة الأحلام ـ بعضها بأجنحة والبعض الآخر بمِظلات ريشية الشكل ـ وترسو على أرخَبيل الفراشات .

واعترته الدهشة حينما استقرت كل منها في الموضع الذي اختارته بإرادتها ، وأصبحت في لمح البصر أشجارًا وزهورًا وأعشابًا خضراء .

جلس وائل القُرْفُصاء على الأعشاب المخملية في إحدى الجزر التي تنتمي إلى أرخَبيل الفراشات ؛ منتظراً قدوم الفراشة الملكة ؛ كي تعطيهِ الإذن بالدخول إلى مملكة الأحلام .

واجتاحه قلق عارم ؛ فقد تذكر أنه ترك أخته الصغيرة رنا بمفردها ، وهما لم يفترقا من قبل ؛ فكيف يقترف هذا الخطأ ويرحل بدونها . انحدرت دمعتان من مقلتيه ، وأجهش بالبكاء ؛ إلا إنه كفّ عن ذلك عندما أبصر الفراشة الملكة تحلِّق فوق الأشجار ، وتنزلق ببطء على زهرة اللؤلؤ ، وتحدِّق إلى وجهه ؛ فهو يكره كثيرًا أن يراه أحد باكيًا . مسح وائل تجويفَي عينيه بأصابعه ، وراح يتأمل الأجنحة المزركشة لفراشات الأحلام التي ترفرف حول الفراشة الملكة مرحبة بقدومها .

قالت الفراشة الملكة وهي تتفحص وجهه :

« الناس أحرار في مملكة الأحلام وحدَها ؛ لأنهم يختارون أحلامهم بإرادتهم ، ويسعَون إلى تحقيقها . ورنا لم تتحرر بعد من عبوديتها لسلطان العقل المتزمت ، وسوف تلحق بك وقت أن تستعيد إرادتها السليبة ، وقدرتها على التفكير الحر والمبدع » .

اندهش وائل من قدرة الفراشة الملكة على تحليل الأمور والكشف عما يجول بخاطره ؛ وقال لها :

« لقد جئت هنا بإرادتي ، ولن أتراجع أبدًا عن تحقيق حلمي بلقاء أمي » .

أحسَّت زهرة اللؤلؤ برنين هذه الكلمات يبعث الدفء في وريقاتها ، وينشر عصارة النَّشْوة في جذورها ، وشعرت بأن وائلا أصبح رجُلا ، وكادت تخبره بأنها أمه ؛ وقد رحلت إلى بحيرة الأحلام ، وحققت حلمها بأن

تكون زهرة اللؤلؤ . لكنها لزمت الصمت ؛ لكيلا تخرق دستور مملكة الأحلام ، ويفقد وائل فرصته في تحقيق حلمه .

بدأت الفراشة الملكة طقوس الاحتفال ، وأومأت بجناحيها إلى فراشات الأحلام ؛ فطارت نحو يَنْبُوع الماء العذب المتفجر في بحيرة الأحلام ، وملأت قنينة صغيرة وأعطتها لوائل الذي عبَّها من الفور ؛ حتى شَرِقَ ، وخيل إليه أنه شرب نهراً من الشهد حتى آخر قطرة فيه .

حطَّت الفراشة الملكة على كَتِفه وقالت له :

« لمملكة الأحلام دستور وعادات وتقاليد . وأول مادة في الدستور هي أن تختار حلمًا ملائمًا ومشروعًا ؛ حتى نسمح لك بالدخول إلى المملكة . فهل اخترت حلمك ؟ » .

رنَا وائل إلى زهرة اللؤلؤ التي كانت ترقبه طَوَال الوقت ، وتعجَّب حين رأى الرحيق يتفجر من تُوَيجها ويندفع نحو فمه المفتوح من الدهشة في دَفَعَات متتالية ، وازداد تعجبه لمَّا مدّت بَتَلاتها نحوه كذراعين مخمليتين تتوقان لاحتضانه اندفع نحوها بشكل لا إرادي ؛ فاحتضنته وقالت له :

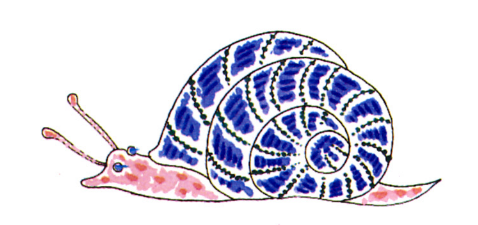
« إياك أن تختار حلمًا يقصيك عني ! فأنا لا أريد أن أفترق عنك أبدًا » .

نظرت إليها الفراشة الملكة شَذْرًا ، وقالت لها بغضب :

« إذا أفصحت عن أسرارنا فسوف نعيده في الحال إلى مملكة الواقع . دعيه وشأنه ، حتى يختار حلمه بدون تدخل من أحد » .

ارتعبت زهرة اللؤلؤ من هذا التحذير ، وانكمشت وريقاتها ؛ لكنها لم تدرك أن كلماتها كان لها تأثير السحر على عقل وائل الذي استغرق في تفكير عميق ، وراح يفتش في خياله عن حلم يجعله قريبًا إلى زهرة اللؤلؤ ولصيقًا بها . لحس شفتيه ، وتذوق قطرات الرحيق التي تدفقت من تُوَيجها قبل لحظات فاتخذ قرارًا حاسمًا وصرخ قائلاً :

« أريد أن أصبح فراشة » .



الفراشة الخفاش

اندفعت الفراشة الخفاش وسط فراشات الأحلام التي التَفَّت حول وائل تشارك في طقوس الاحتفال به في مملكة الأحلام ؛ وقالت بصوت يشبه النعيب المتقطِّع :

« أرفض أن يدخل هذا المخلوق الآدمي مملكة الفراشات ؛ لأنه من آكلي اللحوم » .

تفرَّس وائل وجهها الذي يشبه وجه خفاش ؛ فارتعش من الرعب ! مدّت خُرطومها الذي يشبه منْقار صقر نحو عينيه ؛ فتراجع إلى الوراء ؛ وقبل أن يسقط على زهرة اللؤلؤ استَعاد توازنه ، واحتضنته الزهرة ببَتَلاتها ، ومسحت العرَق المنساب على جبهته بوريقاتها ، وحاولت أن تبدو متماسكة ؛ برغم امتقاع وجهها وخفقات قلبها ، والْتَفَتت نحو الفراشة الخفاش ، وقالت لها بغضب وتحدٍ :

« نحن في مملكة الأحلام لا نستطيع أن نرفض حلماً لإنسان أو حيوان أو طير أو نبات ؛ لأن ذلك يعد مخالفًا لدستورنا » .

رنَتِ الفراشة الملكة ببصرها إلى الفراشة الخفاش التي كانت تنتفض من الغيظ والكَمَد . تتابعت في مخيلتها الصُّور ؛ منذ أن جاءها ذات يوم خفاش بشع الخلقة يشكو إليها من أنه لا يجد طيرًا يؤنسه ، ولا شجرة تأويه ، ولا زهرة ترحب به ، ولا عُشًّا يستلقي عليه ، وأن جميع المخلوقات في هذا العالم تمجُّه وتزدريه ؛ إلى أن رقّ قلبها له ، وساعدته في تحقيق حلمه ؛ حتى أصبح فراشة . لكنها لم تكن فراشة كبقية الفراشات ؛ فهي لم تتخلَ عن أنانيتها الموروثة ، ورغبتها الجارفة في التملك ، وكانت تتسلل ليلاً ـ قبل أن تستيقظ رفيقاتها ـ وتمتص رحيق الزهور بنَهم ؛ حتى تصاب بالتخمة ؛ ثم تعبىء ما تبقى في قنينات صغيرة وتخبئها في مَخْبَأ سرّيّ في تجويف إحدى الشجيرات ؛ واستمرت في هذا السلوك الشائن ؛ حتى كادت تُهْلك الفراشات الأخريات من الجوع ؛ فأصدرت هي قرارًا بتكثيف دوريات الحراسة الليلية ؛ فافتضح أمر الفراشة الخفاش ، وصودرت قنينات الرحيق التي كانت تخبئها ، وحكمت عليها محكمة الفراشات بالنفي من الأَرْخَبيل مدة أسبوع كامل ؛ لعلها تتطهر من آثامها وتفيق من غَفْوتها ؛ لكنها بعد أن عادت من المنفى كادت تفسد طقوس الاحتفال بعالمة النبات التي حلمت بأن تكون زهرة اللؤلؤ ، وأوعزت إلى الفراشات بأن تطالب بسنّ قانون يمنع المتطفلين من بني البشر من الدخول إلى مملكة الأحلام ، ولم ينصت أحد إليها ؛ لأن الفراشات تعلم أن الدستور في مملكة الأحلام سَرْمَدي ولا يمكن تغييره . . .



أشاحت الفراشة الملكة ، بأجنحتها وكفّت عن استرجاع هـذه الذكريات التي تبعث على الكآبة ؛ إذ كان وائل منخرطًا في بكاء مريـر بينما الفراشة الخفـاش تسر في أذنه بسّر الجبلين اللـذين يبرزان فوق سطح الماء في بحيرة الأحـلام : جبـل السَّمَنْدَل الأحمر الـذي يجعل مـن يلمس جسـده يكـاد يُجَنُّ من الضحك ، وجبل الخفافيش التي تجعل من يستمع صراخها وعويلها المتصاعد يستغرق في نوبة هيستيرية من البكاء .

أغلق وائل أذنيه بكلتـا يديه ؛ لئلا يستمع إلى المزيـد من هذا الكلام المخيف ، وجَرى نحـو شجرة الحُور التي تصّد الـرياح عن الجزيرة . مـدَّت إليه الشجرة فروعهـا واحتضنته وربتت على شعره بأوراقهـا التي تشبه القلوب ، لتهدىء روعه وقالت له :

« لا تنتحب يا ولـدي وكُنْ رجلاً ! فـالفراشة الخفـاش تريـد أن تبث الرعب في قلبك . وثق بأن الفـراشة الملكة لن تسمح لها بأن تفسد حلمك » .

ترددت الفراشة الملكة كثيراً قبل أن تحسم أمرها ، وتصدر قرارًا باعتقال الفراشة الخفاش ؛ فهي لم تلجأ من قبل إلى حرمان فراشة من حريتها ، وكانت تكره السجون التي عانت من ذلها قبل أن تأتيَ إلى مملكة الأحلام ؛ لكنها لم تجد وسيلـة أخرى لوقـف الفراشة الخفـاش التي تعيث فسادًا في المملكة . كما كـانت الفراشـة الملكة تعلم أنها إن كفّت عن أداء مهمتها المقدسة في تحقيق الأحـلام لجميع الكائنات الحَيَّة التي تأتي إلى الأَرْخَبيل ؛ فإنها ستموت من الفور ، وستذروها الريح مثل ورقة شجر يابسة .

أمرت الفراشة الملكة النمل النَّسَّاج بإعداد سجن صغير من الكرتون به ثقوب للتهوية ، وامتثل النمل لأمر مليكته وأَعـدَّ السجن الكرتـوني في لحظات ؛ ثم زحفت بضعـة آلاف من النملات العامـلات نحو الفـراشة الخفاش ، وألقـت بها في السجن الكرتوني . صرخـت الفراشة الخفـاش ، وراحت تلطم بأجنحتهـا صفائح الكرتون؛ حتى كادت تتكسر ، وحملقت إلى وائل عبر ثقوب التهوية وقالت له :

« لن أكف عن ملاحقتك أينما ذهبت ، ولن أسمح لك بتحقيق حلمك » .

سدَّت الفراشة الملكة ثقوب التهوية بأجنحتها البرتقالية ؛ وقالت لوائل :

« انطلق الآن نحو بحيرة الأحـلام ، ولا تجعل الخوف يثبط عزيمتك ، وعليك أن تتحين اللحظـة الملائمة بعد أن يصعـد طاووس البحـر بين الجبلين ؛ وتنتزع من زعانفـه الطحالب الحمـراء ، وتخضِّب بها جسدك . ولابد من أن تعلم أنك إن فشلت في تحقيق حلمك فسأموت أنا » .

نظـر وائل إلى شجرة الحُور ؛ فأشـارت إليه بفـروعهـا نحو البحيرة ، ولـوّحت إليـه زهرة اللـؤلؤ بأوراقهـا البيضاء؛ حتى تبثَّ الشجاعة في قلبه ، ورفعت الأعشاب المخملية أعناقها وتشكلت على هيئة سهام خضراء تشير نحو بحيرة الأحلام .

صعد وائل إحدى الصخور ، وتأمل جسده الذي يتصبَّب عرقاً ؛ ثم قفز في الماء .



عسكري البحـــر

ضاقت الصَّدَفة التي يسكن فيها عسكري البحـر ، وأصبحت لا تلائم جسده ؛ بعد أن كبر وصار صبيًّا يافعًا .

أعياه البحث في قاع البحـر عن صَدَفة أخرى مـلائمة بدون جدوى ؛ فصعد إلى السطـح يائساً ، وتأمل بطنه الـرخوة بأسـف ، وندب حظـه العاثر ؛ لأن طـاووس البحر سيصعـد بعد قليل ويلتهمـه ضمن آلاف الحيوانات البحْـرِيّة الصغيرة ، وأحسّ بأنه مخلوق تـافه لا يستطيع الذَّود عن حياتـه . رأى السرطان الراكض يعدو بين الصخور ؛ فاستوقفه مستجديا طالبًا المساعدة في البحث عن صَدَفة ؛ لكنه تجاهله ، واستلقى على إحدى الصخور يستمتع بدفء الشمس ، ولم يعره التفاتًا .

سيطر الشعـور بالإحباط على عسكـري البحر ، وتـذكر الأيام الغـابرة ؛ أيام كـان فراشـة المحارة ولم يقنع بمصيره ، وأراد أن يكون له وضع مميز وكلمة نافذة ، وأن يصبح كائنًا بحْرِيًّا مهيبًا تخشَى بأسه الكائنات الحَيَّة كلهـا . وتساءل كيف يكـون مجرد فراشـة ضمن آلاف الفراشـات التي تخضع لإرادة الفراشـة الملكة وتنصـاع لأوامرها ؛ بعد أن خدعته الفراشة الخفاش ، وداعبت خياله ، وشكلت له صورة خرافية عن عسكري البحر الذي يفوق الحوت الأزرق قوة وضراوة . وتذكر يوم جازف بـانتزاع الطحالب الحمراء من بين الزعانف السامة لطاووس البحـر ؛ ليخضِّب بها جسده ، ويحقق حلمه ، معرضًـا نفسه للهلاك . وشعر بـالأسف ! فهاهي الأقدار تسخر منه الآن بعد أن أصبح كائنًا بحْرِيًّا ضئيلاً لا حول له ولا قوة .

أفـاق من غفوة الـذكريـات على صرخة حـادة تنبعث من بلحة البحـر التي كانت تحاول الفِـرَار من نَجْم البحر؛ وقـد كان يطاردها بإلحاح ؛ ليفتح مصراعَي صـدفتها ، ويذيب لحمها ويمتصّـه . واعترت عسكري البحر دهشة بالغة حينما صعدت المحارة المِرْوحة من قاع البحـر ، وفتحت صَدَفتها وأطبقتها بقوة وقذفت الماء على العيـون الخمس المنبثقـة من أذرع نجم البحـر الـذي اضطرب ، وراح يتخبط في الماء يَمْنَـة ويَسْرة حتى أوشك على الارتطام بإحدى الصخور .

انتهزت بلحة البحر الفرصة ولاذت بالفرار .

واختبأ عسكري البحر بين حزمة من الأعشاب ، وتساءل في قرارة نفسه :

« عجباً ! لم أرَ من قبل كـائنًا بحْرِيًّا يغامـر بحياته من أجل رفيق له . لا شـك في أن المحارة المِرْوحة تتمتع

بقدر هائل من السذاجة حتي تفعل ذلك ؛ فكل كائن بحْرِيّ في هذا الخِضَمّ الرهيب لا سبيل أمامه إلا أن ينجوَ بنفسه وحسب » .

غاص عسكري البحر في القاع مرة أخرى ؛ علَّه ينال مأْرَبه ، ويعثر على صَدَفة لأحد الحلازين الميتة . لكنه بذل جهدًا كبيرًا في البحث والتنقيب والنبش بمقابضه في الطين اللزج ؛ ولم يجد صَدَفه تناسب جسده ؛ فصعد إلى السطح باكيًا مستسلمًا لمصيره المحتوم . ولمَّا رأى وائلا يسبح نحوه ؛ تجدد أمله في النجاة .

اعترض عسكرى البحر طريق وائل ، وقال له بتوسل :

« أراك متعجلاً ؛ لكنني في حاجة ماسة إلى صَدَفة أحتمي بها من طاووس البحر » .

تأمل وائل شكله الذي يشبه الجَمْبَرِي ، وقال له :

« لا وقت لديّ أبدده في البحث عن صَدَفة تلائم جسدك الهزيل » .

قال عسكري البحر بصوت متهدج :

« امضِ في طريقك ـ إنْ شئت ـ ولست غاضباً منك ؛ فأنا أستحق هذا المصير . لكنني أطلب إليك معروفًا قبل أن أموت » .

قال وائل بلهفة :

« اطلب ما شئت » .

ـ اقتلني بيديك !!

صرخ وائل في وجهه من هول المفاجأة :

« كيف تطلب إليَّ ذلك ؟! أنا لست سفاحاً » .

أراد عسكري البحر أن يستغل شعور وائل بالتعاطف نحوه ؛ وقد تبين له أنه قد بدأ في النمو داخله ؛ فتصنع البكاء قائلاً :

« أنا ميِّت لا محالة . . . والموت بيديك الرقيقتين أفضل من الموت بيدي طاووس البحر الذي سيمزقني إربًا قبل أن يفترسني » .

اغرورقت عينا وائل ، وقرر أن يغوص في القاع ؛ ليبحث له عن صَدَفة ملائمة ؛ وإن أدى ذلك إلى ضياع حلمه هذا العام .

اقترب وائل من القاع المظلم البارد ، وفوجيء بآلاف من المصابيح المضيئة تنتشر حوله ؛ فخفق قلبه من الخوف . كانت تلك المصابيح تنبعث من أجساد بعض السمكات التي تحتفل بعُرْس رفيقة لها . أحس وائل برغبة جارفة في التوقف قليلاً لمشاهدة هذا العرس الجميل ؛ بيد أنه قاوم رغبته بصعوبة بالغة ، واستمر في

البحث عن الصَّدَفة . لم يجد إلا رقائق من الزجاج مقوسة أو محززة أو مجعدة تنتشر في طبقة شاسعة من الرَّماد الأبيض ، ولم يكن يعلم أن ذلك الرماد هو غُبَار النيازك والشُّهُب التي تقذفها السماء في أعماق البحر .

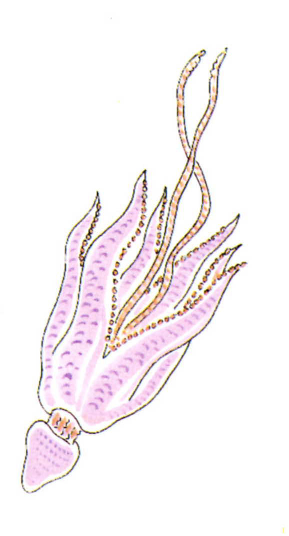
دار ببصره حوله حتى وجد إحدى الجزر الغارقة التي تنتشر على سطحها مجموعة من القواقع الجيرية المتنوعة الأشكال ؛ فتهلَّل فرحًا ، وسبح بسرعة نحو الجزيرة ؛ لكنه تجمد رعبًا عندما فوجىء بأسراب من الحَبَّار تطلق سحبًا من الحبر الأسود ؛ لكي تغطي هروبها من أحد الحيتان الزرقاء العملاقة . انتظر وائل حتى انقشعت تلك السحب ، واقترب مرة أخرى من الجزيرة ، وكاد يُغْشي عليه حين حدَّق إلى وجهه حوت أزرق وحَام حوله ؛ ثم مضَى في طريقه بدون أن يمسَّه بسوء .

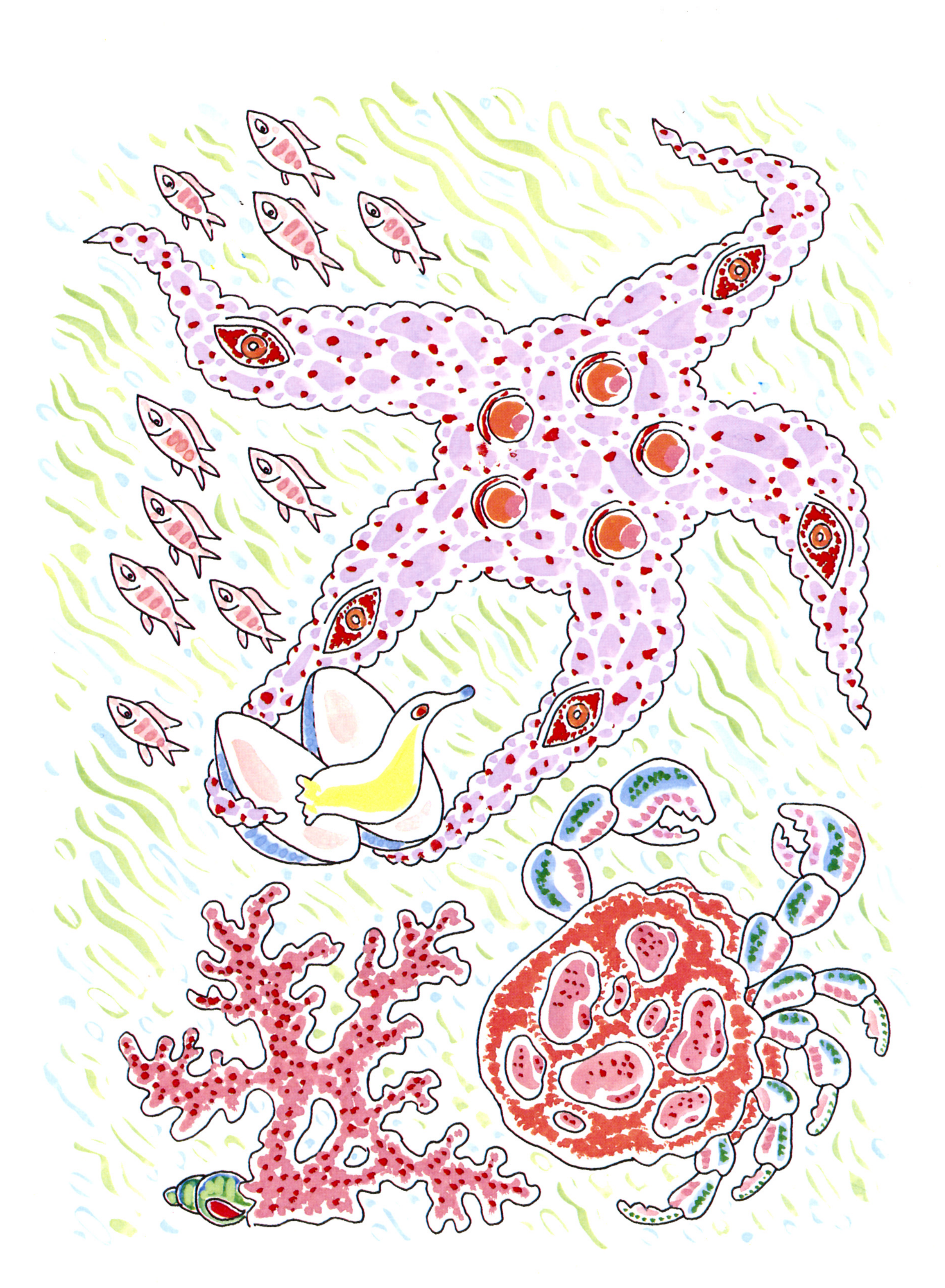
استفاق وائل من ذهوله ، والتقط أنفاسه وهو لايصدق ما رآه .

ثم انتقى قوقعة جيرية مثقبة بثقوب دقيقة ومقسمة إلى عدة غرف ، وضحك في داخله قائلاً :

« إنها مثل فندق صغير مكيَّف الهواء . وسوف يفرح بها عسكري البحر كثيرًا » .

جمع وائل بعض الأصداف الأخرى حتى يعطيه فرصة للاختيار ، وبدأ رحلته في الصعود إلى سطح البحر وقلبه يرقص بين ضلوعه من الفرح .





نَجْـم البحـر

وَلْوَل عسكري البحر عندما جرفت الأمواج ثـروته من الأصداف التي كان يخبئها وسط حزمة من الأعشاب في إحـدى الجزر ؛ ليستغلها في المسـاومة مع نَجْم البحـر ذي العيون الحمـراء التي تبث في قلبه الـرعب حتى يأمن شَرّه ، أو يقايضها بغذاء شهيّ مع بلح البحر أو الكَوْعَل أو الحَلَزون .

أرادت بعض القـواقع أن تداعبـه ؛ فقـذفت ببعض مُخاطهـا اللَّزج على محارتـه الجديـدة ، وكادت تسـدّ ثقوبها ؛ فـانطلق خلفها شاهـراً مقابضه وهـو يزأر من الغضب ؛ لكنها أسرعت بـالفرار قبل أن يلحق بها . غطس عسكري البحر في الماء حتى ينظف محارته من المُخاط ، وصعد وهو يكاد ينفجر من الغيظ والكَمَد .

مرّر طحلب خسّ البحـر سَعَفَه المُمَـوَّج الحوافّ على وجه وائل الذي نهض متثـاقلاً ؛ فإذا بمحـارة بلحة البحر تخلع صَدَفتها المتهرئة ، وترتدي صَدَفة بمصراعين ملائمة تماماً لجسدها الذي يشبه جسد أوزة قَزْم ، ثم تنظر بزَهْوٍ إلى محارتها الجديدة ، وتفتحها بحذر ؛ لتأكل بعض العوالق .

انتهز عسكري البحر الفرصة وانقض على محارة بلح البحر بمقابضه محاولاً فتح مصراعَي صَدَفتها ؛ لكنها استطاعت أن تطـويها كِغلاف كتاب محكم على حافـة الصخرة التي ينام عليها وائل . طـاف حولها عسكري البحر ، وقال لها مهددًا :

« ما لم تعطيني صَدَفتي أيَّتهُاَ اللصة الماكرة فسوف أجعل نَجْم البحر يمتصّ لحمك» .

لم يصدق وائل مـا رآه بعينيه ، وسيطـر عليه شعـور قويّ بخيبـة الأمل ؛ فهو لم يتخيل أبـدًا أن عسكري البحر ـ الذي جازف هو بحياته من أجله ـ شرس وأناني إلى هذا الحدّ .

اقترب وائل من حافة الصخرة ، ورمق عسكري البحر بغضب والْتَقطه بعنف حتى كاد يعتصره بين يديه ، وقال له :

« لا أريد أن أراك مرة أخرى في بحيرة الأحلام ولقد ندمت على ما فعلته من أجلك » .

ثم قذف به إلى الماء .

جلس وائل على الصخـرة يتأمل الجروح التي أحدثهـا عسكري البحـر في الجسد النحيل لبلحـة البحر ؛ وكانـت قد تشبثت بـالصخرة ، وراحت تصـدر أنيناً خـافتًا . ولم يكن هـو يعلم أن عسكري البحـر ما زال

متربصًا بين الأعشاب وقد صّوب بصره إلى المحارة الجريحة ؛ يتأجج صدره حقداً وغضبًا ، ويتحين الفرصة الملائمة للانتقام منها ؛ ومن وائل الذي حال بينه وبينها .

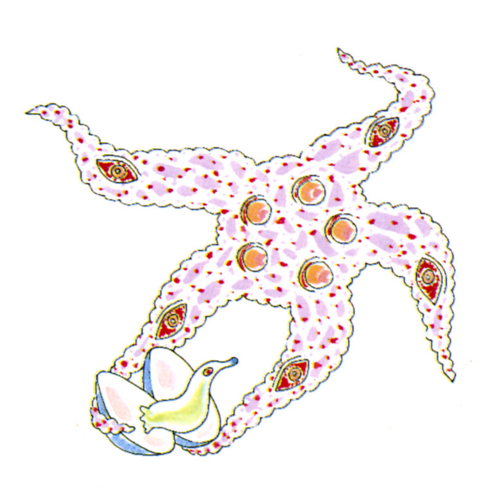
أوجس عسكري البحر :

سوف أنال منكَ أيُّهَا الولد المغرور ـ بعد أن أحقق ما أحلم به وأصبح كائنًا بحْرِيًّا عملاقًا .

راودت عسكري البحر فكرة شريرة عندما رأَى نَجْم البحر يقترب منه رويداً رويداً ليفترسه .

أراد أن يستفزه حتى يتبعه ؛ فأحدث جلبة وضوضاء ، وطرطش الماء في وجهه ، وأطلق صرخة حادة ؛ ثم دار حوله ، وسبح بسرعة نحو بلحة البحر . طارده نَجْم البحر وقد جُنّ من الغضب . اقترب عسكري البحر من بلحة البحر ؛ وعندئذ أسرع بالفرار والاختباء بين كومة من الأعشاب ، وقهقه ضاحكاً لمَّا ترامت إلى سمعه صرخات بلحة البحر التى انقض عليها نَجْم البحر ، وثبّت أذرعه الخمس حول مصراعَي صَدَفتها ، وأخذ يشدهما بأقصَى ما يملك من قوة إلى أن انفتحا ؛ ودفع معدته داخل محارتها حتى استطاع أن يذيب لحمها ، ويمتصّه بشراهة .

لم يستطع وائل أن يحتمل ما رآه . أدام النظر في العيون الخمس الحمراء لنَجْم البحر التي تنبثق من أذرعه ؛ فأحس بالدُّوَار ، وسقط مَغْشِيًّا عليه ، وظل راقدًا على الصخرة إلى صباح اليوم التالي .



القـــرش ـ الثـعلب

انبلج الفجر ؛ وهـا هو طـاووس البحـر يصعـد إلى سطح الماء ، ويلطم بأجنحته الملونة وجه البحر المضطرب ، ويشهر أشواكه السامة في وجه كلّ متطفل من الأسماك والكائنات البحرية ؛ وفي وجه كلّ من يحاول انتزاع الطحالب الحمراء من بين زعانفه .

فتح وائل عينيه عندما سمع رفيف الأجنحة لآلاف الفراشات التي غطت وجه السماء فوقه تماماً ؛ وألقت جواره أعشاباً تنبعث منها رائحة عطرة .

حَطت الفراشة الملكة على كَتِفه ، وهمست في أذنه :

« هذه الأعشاب تعطي من يتناولها طاقة احتمال غير عادية للغوص والبقاء تحت الماء . فلتتحينِ الفرصة الآن ، وتغطس تحت أجنحة الطاووس ، وتنتزع حزمة من الطحالب الحمراء من بين زعانفه السامة ؛ قبل أن يشرع في العبور بين جبل الخفافيش وجبل السَّمَنْدَل الأحمر » .

حدَّق وائل إلى طاووس البحر ، ولَمح حبَّاراً جريئًا يقترب منه ويدور حوله دورتين ؛ لكنه لاذ بالفرار حين بسط الطاووس أجنحته ، وبدأ في أداء رقصته المقدسة ، وضرب الماء بعنف ؛ ممّا أدى إلى تصاعد رمال القواقع والأصداف من قاع البحر ، وتناثرها على الشاطىء ثم هبوطها إلى أسفل في أقواس رشيقة ملونة .

خفق قلب وائل من الخوف لمَّا رأَى المحارات توصد فتحات أصدافها ، والسمكة الأفعَى التي اعتادت أن تبرز أسنانها ـ برغم انغلاق فكَّيْها ـ تسرع بالاختباء بين سحب البحر السوداء التى أطلقها الحبَّار ؛ ليغطيَ انسحابه .

تصبَّب وجهه عرقًا ، وسيطر القلق على مشاعره ، والْتَفَت نحو الفراشة الملكة ، وقال متلعثمًا :

« هل تسدين إليَّ صنيعًا وتكلفين أحداً غيري بإحضار حزمة الطحالب الحمراء » .

قالت الفراشة الملكة بصوت ينتفض من الغضب :

« إنـه حلمك أنت ؛ ولا يليق بى أن أكلف أحـداً بتحقيق حلمك بينما أنت تغطّ في النوم على هـذه الصخرة . وتَذَكَّرْ أنك لو فشلت في تحقيق مهمتك فسوف أموت وتندثر مملكة الأحلام من الوجود » .

لم يستطع وائل ـ وقد تملَّكه الخجل ـ أن يطيل النظر إلى عينيها اللتين توجهان اللوم إليه . وبشكل لا إرادي

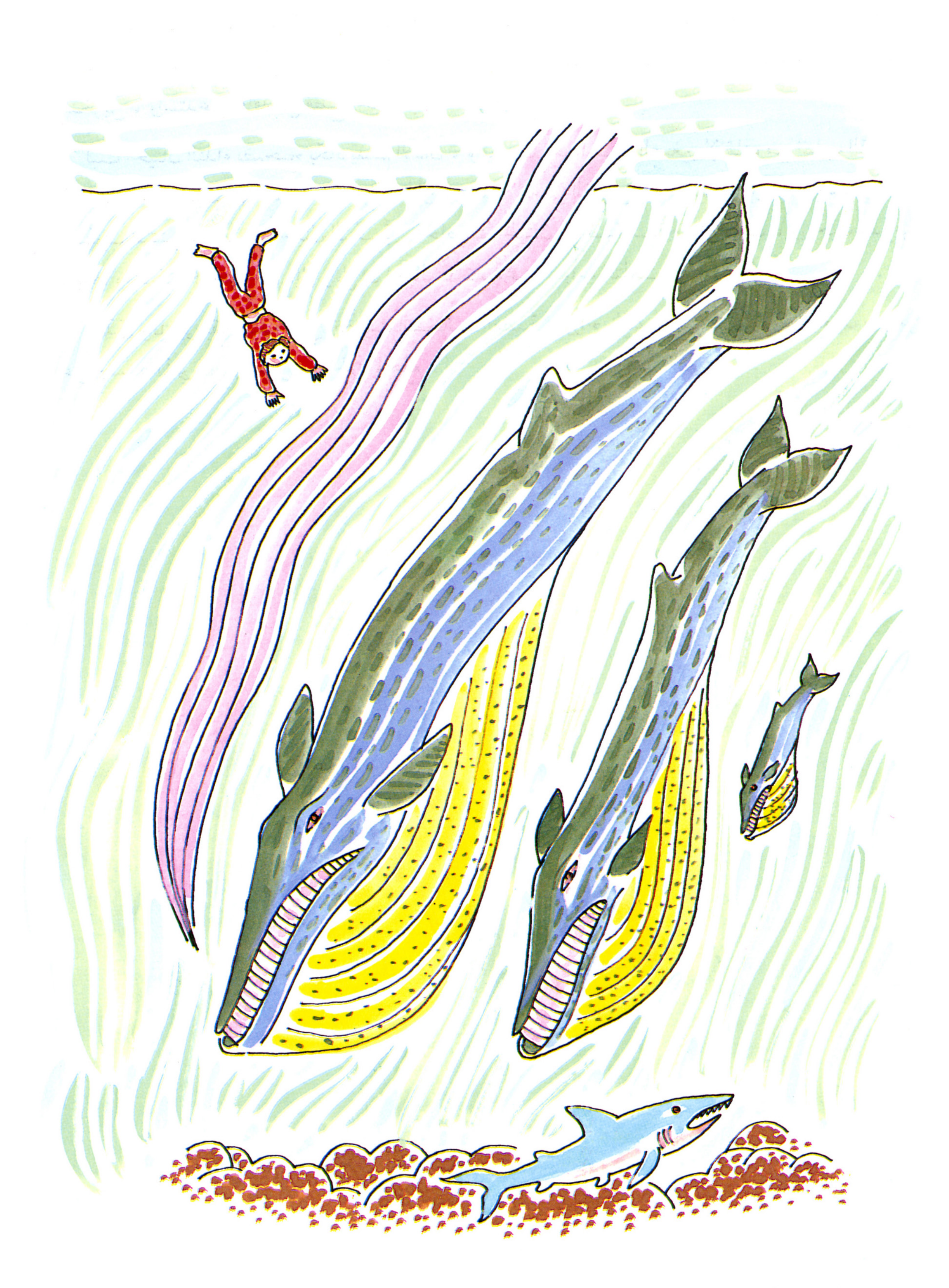
تناول الأعشاب العطرة ، واقترب من حافة الصخرة ؛ ثم قفز في الماء ، وسبح نحو طاووس البحر .

رفرفت الفراشة الملكة فوق بحيرة الأحلام ؛ وفغرت فمها من الدهشة ! كان عسكري البحر يسبح بقوة صَوْب طاووس البحر ؛ وقد انتظر حتى استطاع وائل أن ينتزع حزمة الطحالب الحمراء ، ورشق مقابضه في يده وفتحها عنوة ؛ واستولى على الطحالب ؛ وسبح بعيداً إلى إحدى الصخور ؛ وخضَّب جسده بها .

شهقت الفراشة الملكة من الفزع ! فقد استحال عسكري البحر إلى سمكة قرش لها ذَنَب بالغ الطول ووجه ثعلب ، وفاضت عيناها بالدموع عندما شرع القرش ـ الثعلب يطارد وائلا بإصرار ، ويحاول أن يضربه بذَنَبه الطويل .







الحُوت المُغَنِّي

لم يدرك وائل مـا الذي جعل القرش ـ الثعلب يهرب مـذعورًا ؛ وكان قد أوشك على افتراسـه ؛ لكنه تبين حقيقة الأمر حينما ظهر على سطـح الماء حوت مفتوح الفم ينشر شبكة من الفقاعات ، ويصيـد بمهارة فائقة كميات هائلة من القشريات ؛ ثم يغطس في القاع .

سمع وائل أصواتاً رتيبـة متكررة ؛ بدت له كخُـوَار البقر أحياناً ، وكصهيل الخيل أحيـاناً أخرى . أرهف السمع إلى تلك الأصوات ، واستطاع أن يميـز مقاطع وجملاً موسيقية تتكرر بأسلـوب منتظم ، وغناء جماعيًا يتخلله أحياناً صوت فردي قوي جميل . تَذَكَّر آخر أغنية غنَّتها له أخته رنا وهما يمرحان على شاطىء البحر ، وبدت في مخيِّلته كعصفور يرفرف في الضباب وتضيع زقزقته في ضوضاء مبهمة .

انخرط وائل في بكاء مرير عقب توقف الأغنية التي كانت تمتّص إحبـاطه وتؤنسه في وحدته ، ولم يدر ماذا يفعل بعد أن سرق منه عسكري البحر حزمة الطحالب الحمراء ؛ ليستحيل بها إلى قرش ـ ثعلب .

شرعت الأصوات المنبعثـة من قاع البحـر في الغناء من جـديد ؛ فأحس وائل بأن هـذه الموسيقَى تأتي من جميع أرجـاء الكون : من بحيرة الأحـلام ، ومن نَجْم يمـوت في الفضـاء البعيد ، ومن زهـور ذابلـة تذروهـا الرياح ، ومن نحيب الفراشات في الأَرْخَبيل .

انتفض جسد وائل من الحزن ، وقال لنفسه :

« يبدو أن الفراشة الملكة تُحْتَضَر ؛ لأنني أخفقت في تحقيق حلمي » .

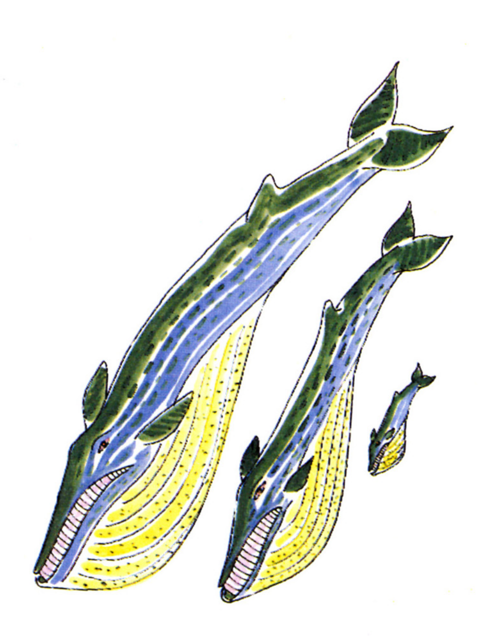
وعندئذ قرر ألا يستسلم للحـزن ، وغطس في القاع مرة أخرى باحثاً عن طـاووس البحر ؛ لينتزع من بين زعانفه حزمة أخـرى من الطحالب الحمراء . شهق من الدهشة حين رأى حوتاً عمـلاقاً يفوق حجمه ثلاثين فيلاً ـ على الأقل ـ يشرع في الغنـاء ، ثم يسبح جِوَار أنثاه في صمت يدوم بضع دقـائق ؛ يداعب في أثنـائها وليده الذي كان يدور حول أمه لكي يرضع أثـداءها ؛ يعود الحوت الأب بعدها إلى الغناء وقد فرغ صغيره من الرَّضَـاعة ، وبدأ في اللعب بجذع شجـرة عملاقة ، يقذفـه عاليًا حتى يصل إلى السطح ثم يدفعـه إلى القاع بإحدى زَعْنَفَتيه .

صرخ وائل من الفزع وقـد لَمح القرش ـ الثعلب بزَعْنَفَتِـه الظهريـة المُثَلثة وفمـه المفتوح المدجج بـالأسنان

القاطعة ، يتجه بسرعة فائقة نحو الحوت الصغير . سبح نحو الأم وحذَّرها من الخطر المحدق بوليدها ؛ فلطمت الماء بزَعْنَفَتَيْها ، وأطلقت صرخة هائلة ؛ بينما كفَّ الحوت الأب عن الغناء ، وأحدث زفيراً قويًّا عبر المُنْخُرَيْنِ ، واستدعى رفاقه من قطيع الحيتان بنداء حاد متقطع .

لبَّت الحيتَان النداء بضجيج يكاد يصمّ الآذان ، وأسرعت نحو الحوت الصغير لإنقاذه من أنياب القرش ـ الثعلب ؛ واكتشفت أنها جاءت بعد فوات الأوان ؛ فلقد افترس القرش ـ الثعلب صغيرها ، واختبأ في أحد الكُهُوف المنتشرة في سلسلة الجبال البَحْرِيَّة . حاصرت الحِيتَان الغاضبة مداخل الكُهُوف ، وراحت تضربها بذيولها وزعانفها ؛ حتى خُيِّل إلى وائل أن الجبال قد تصدَّعت ، وأنها اقْتُلِعَت من أوتادها .

حدَّق وائل إلى بقع الدم التي خضَّبت الطحالب الفضية ، وراح يَهْذِي ويهمهم ، ولم يستطع أن يسيطر على جسده الذي كان ينتفض من الحزن والهلع .



البحـــر الأســير

غاض ماء البحر حتى ظهرت حافتاه ؛ فكأن قاع البحر غابة من الإسفَنْج فتحت أشداقها وامتصّت كل الماء ، بدون أن تترك قطرة واحدة للأسماك والكائنات البحرية التي يبست أجسادها ، وتكدست فوق الطحالب والغابات المَرْجانيَّة ، وأوشكت على الاحتضار .

أراد وائل أن ينهض لكي يتبين حقيقة ما يحدث حوله ؛ لكنه اكتشف أنه مقيد إلى الصخرة بحبال من الأعشاب الحمراء ، سمع أنينًا خافتًا ؛ فتلفت حوله ؛ فإذا هي رنا مقيدة بالحبال نفسها على الحافة الأخرى للصخرة ؛ وقد استغرقت في نوم عميق .

انبجست تحت قدميه عَيْن من الماء ؛ فمدّ فمه ليرويَ حلقه الذي كاد يجفّ من العطش . انتابته نوبة حادة من السعادة ، وإحساس عارم بالغثيان ، وعرف أنه شرب ماء أُجَاجًا تختلط فيه الملوحة مع المرارة ؛ فلفظه من الفور . تأمَّل وجه رنا المكفهر المائل للاصفرار ، وجسدها الذي يرتجف من الجزع فاضطرب قلبه قلقاً عليها ، وراح يصفر لها ليوقظها ؛ دون جدوَى .

تتابعت في مخيِّلته الصُّور ؛ منذ أن جاءت رنا إلى الصخرة في قارب صغير ، وأخبرته بأنها تريد أن تشاركه حلمه وتصبح فراشة مثله ؛ بعد أن فشلت فى العثور على أمها ، حتى باغتهما القرش ـ الثعلب ، وقيدهما إلى هذه الصخرة . وكان قد نصَّب نفسه ملكاً على مملكة الأحلام ، بعد أن عزل الفراشة الملكة ، وعيَّن الفراشة الخفاش وزيرة للملكة ، وغيَّر الدستور الذي يسرى في أَرْخَبيل الفراشات منذ آلاف السنين ، واستطاع أيضاً أن يخدع طاووس البحر ؛ بأن دفع نحو فمه سيلاً من الكائنات الدقيقة الحمراء التي تسمم المياه ، وتقتل الأسماك ؛ فمات الطاووس مسمومًا ، واستولَى هو على مخزونه السّريّ من الطحالب الحمراء ، وأصبح يتحكم الآن في أحلام الإنسان والحيوان والنبات ، ويختار لكلّ كائن حيّ حلمه ، ولايعطي أحدًا أية فرصة للاختيار ؛ لأنه يعلم أن بعض الأحلام قد تقضى على عرشه .

تساءل وائل هامساً :

« أين ذهب ماء البحر ؟! هل تبخرّ ؟! » .

نهضت رنا من سُبَاتها مذعورة ، واستنجدت بأخيها الذي شلَّ الرعب لسانه . . قال القرش ـ الثعلب للأخوين متهكماً :

« هل تحلمان بأن تكونا فراشتين ؟! » .



أجابا بصوت مرتعش :

« نعم . . . » .

ردَّ القرش ـ الثعلب بازدراء :

« من أين ستحصلان على الطحالب الحمراء ؟ » .

أطبق الصمت على الأخوين ، وتطلعا إلى السماء فرأيا فراشتين من الضوء : واحدة أرجوانية والأخرى زرقاء ؛ تخفقان بين السحب ، وتمتصان أَشِعَّة الشمس ، وتتزلقان في ظلال مقوسة بحواشٍ وردية ، وتخرجان من الظلال إلى السماء الزرقاء .

ومن قمة جبل الخفافيش الذي يبرز على سطح الماء ؛ انطلقت خفافيش بشعة الخلقة في أفواج متتابعة ، وانقضت على الفراشتين ، وانتزعت من أجنحتها الحَراشِف الملونة حتى بدَت عروقها ، وامتصت من جسديها الرحيق ؛ ففقدت الفراشتانِ القدرة على الطيران ، وظلت الرياح تؤرجحها حتى سقطتا في قاع البحر الخاوي من الماء .

أحسّ الأخوان بالإحباط يسرِي في عروقهما واغرورقت عيونهما . إلا إن وائلا حاول أن يبدو متماسكًا ، وقال لأخته بصوت يختنق بالبكاء :

« لن نستسلم له مَهْما حدث » .

رمقَت رنا السرطانات التي تُحْتَضَر حولها ، والطحالب التي جفَّت حوافها وتهدلت سُعُوفها ، وقالت لأخيها في يأس :

« ما الذي يمكن أن نفعله وكل شيء يموت حَوْلنا » .

قال القرش ـ الثعلب :

« لن تستطيعا أن تفعلا شيئاً . . . فلقد حددت مصيركما ، واخترت لكلّ منكما حلماً مناسبًا : سوف يستحيل وائل إلى نَجْمة بحر ، وإيناس إلى بلحة بحر . . . .

وأكمل وائل صارخًا في وجهه :

« . . . ونَجْمة البحر تفترس بلحة البحر ، و القرش ـ الثعلب يلتهم نَجْمة البحر ! » .

ردَّت رنا بتحدٍ سافر :

« لن يستطيع أحد أن يرغمنا على قبول حلم لا نريده » .

اشتعل القرش ـ الثعلب غضبًا ، ولطم الصخرة بذَنَبه الطويل ؛ فانبجست عينان من الماء الساخن أمام الأخوين ، وكاد البخار يحرق وجهيهما . ملأ القرش ـ الثعلب صَدَفتيْن من الماء الساخن ، وحاول أن يجبرهما

على تناوله رشفه رشفة حتى أوشكا أن يختنقا من السعال ، ويحترقا من البخار المتصاعد ؛ ثم حلّ وثاقيهما ، وأعطَى كلاًّ منهما حزمة من الطحالب الحمراء قائلاً :

« فليخضِّبْ كلّ منكما جسد الآخر ، وستريان كيف ستحلمان وَفْق إرادتي » .

فوجىء الأخوان بحيَّات وعقارب وكلاب وطُيُور مفترسة تخرج من البخار الساخن وتُحَوِّم حولهما .

احتضن وائل أخته التي كانت ترتجف من الرعب ، وراح يحملق في تلك الكائنات المفترسة ، وأدرك أنها لا تحدث ظلاًّ حين تنعكس أَشِعَّة الشمس عليها ، ولا تصدر أصواتًا تدل على وجودها ، ولم يسمع لها نُبَاحًا أو عُوَاء أو فحيحًا أو رفيفًا ؛ فهي مجرد أشباح بلا صوت ولا ظلّ ؛ طُيُور لا تنقر ، وعقارب لا تلدغ ، وكلاب لا تعقر ، وحيَّات لاتنهش . مدّ يده والتقط عقربًا وكلبًا وطائرًا وحيَّة ؛ فاستحالت تَوًّا إلى قطرات من الماء ذابت بين أصابعه .

استرددت رنا شجاعتها ، وصرخت في وجه القرش ـ الثعلب :

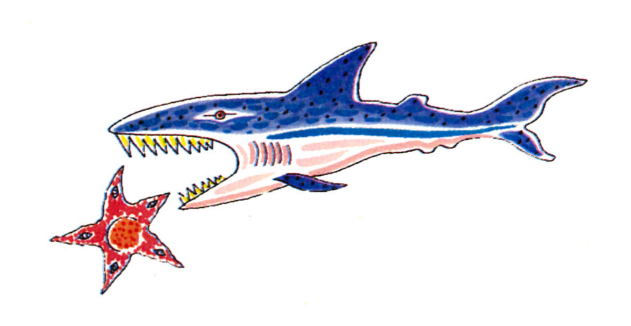
« سوف نصبح فراشتين كما نريد رَغْم أنْفِكَ » .

اهتاج القرش ـ الثعلب من شدة الغيظ ؛ وقال لهما :

« ستصبحان فراشتين كما تريدان ؛ لكنكما لن تعيشا طويلاً ؛ فسوف أحبس الشمس في هذه الصَّدَفة ، ولن تجدا زهرة واحدة تمتصّان رحيقها . وبدون دفء الشمس ورحيق الزهور لن تستطيعا الطيران ، وسوف تهلكان » .

مدّ القرش ـ الثعلب زعانفه نحو الشمس ليمسك بها ؛ فانقسمت الشمس إلى نصفين ، استحال كل نصف إلى شمس مشرقة ذات حواشٍ حمراء وخضراء وأُرجُوَانيَّة .

أصدر القرش ـ الثعلب هديرًا مخيفًا ، ومدّ زعانفه مرة أخرى ، وأحكم قبضته على توءم الشمس ؛ فأفلتتا من زعانفه ، واستحالتا إلى فراشتين خضراوين تشعان بالضوء وترفرفان في الفضاء .



تَحــــرُّر البحــر

من أين يأتي هذا الرفيف . . أمن جبل سحريّ يحبس الريح في كهوفه ، ويطلقها كيفما شاء ، أَمْ من مخلوقات فضائية تعيش في كوكب مجهول ، وتطلق من حناجرها هذا الغناء الشجي ؛ لتحذّر الكائنات الحية في كوكب الأرض من خطر القرش ـ الثعلب الذي استولَى على أحلامها ، أَمْ هو زفير القرش ـ الثعلب الذي لايزال يطارد فراشات الضوء الخضراء ؛ ليمزقها بزعانفه الشرسة ؟

كان هذا الرفيف يأتي من الأسماك التي كانت تُحْتَضَر وتنثال عليها قطرات المطر وتبلل أجسادها اليابسة .

حَلَّق الأخوان في السماء والمطر ينهمر مدرارًا ؛ فرأيا آلافًا من فراشات الضوء الخضراء تخترق السحابات الدكناء ، وتمتصها ـ مثلما تمتص الرحيق ـ وتهبط رويدًا رويدًا ، وتقطر الماء في قاع البحر ، وآلافًا أخرى من الفراشات الأُرجوَانيَّة تمسك في خراطيمها مكعبات من الجليد : الأزرق والأخضر والبرتقالي الذي الْتَقَطته من جبال الثلوج في الكواكب الأخرى المنتشرة في الأجرام السماوية ؛ ثم تهبط بها في قاع البحر في أسراب متتالية ، وتضعها برفق ، وتطلق من خراطيمها رياحاً ساخنة حتى تنصهر .

أصبح الرفيف هديرًا صاخبًا حين انبجست من الكُهُوف الصخرية الموصدة التي أُسِرَ فيها البحر ؛ آلاف من عيون الماء العذب ؛ فهشم الماء الأبواب الصخرية الحصينة ؛ لتستحيل إلى شَذَرات من الحَصَى . وأخيراً؛ صار الهدير زقزقة عصافير ، وتغريد بلابل ، ومُوَاء قِطط ، وعُواء كلاب ، وجُؤَار أفيال ؛ مع انطلاقة البحر الأسير من كهوفه كالطوفان الذي يكتسح في طريقه كل شيء ؛ ملقيًا بالقرش ـ الثعلب في خِضَمّ الأمواج الهادرة جارفًا معه مخزونه السّريّ من الطحالب الحمراء .

لم يصدق القرش ـ الثعلب ما رآه بعينيه ، وكلما حاول التقاط طحالبه الحمراء من الماء المتدفق ضربه البحر بأسواطه ، وأثخن جسده بالجراح . استعاد توازنه بصعوبة ، واستسلم لليأس ، وراح يرمق طحالبه التي تذوب في المياه وتلّون وجه البحر باللون الأحمر في حسرة ؛ ثم غاص في القاع واعتزل في أحد الكهوف .

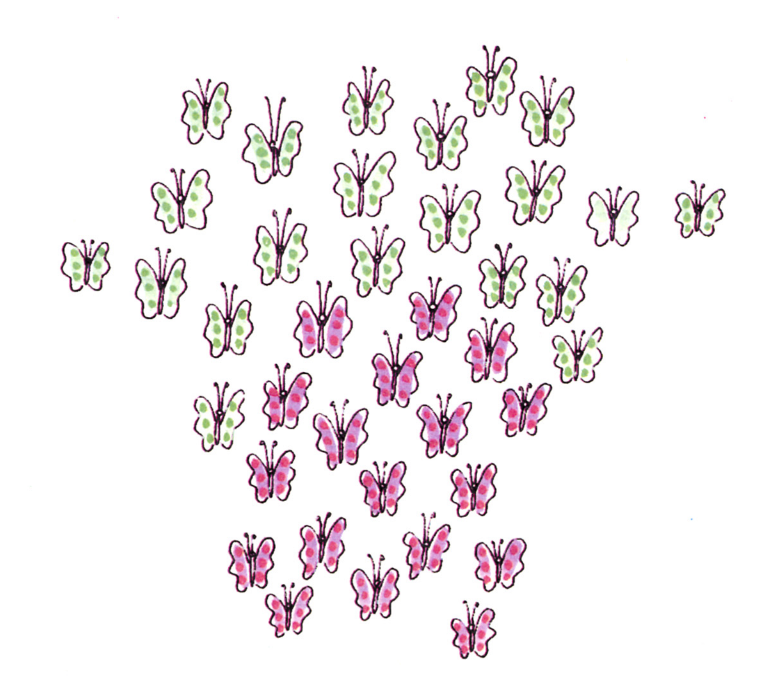
شهق وائل من النشوة لمّا داعبه البحر ورشّ الماء على وجهه ؛ثم قال لأخته :

الآن أصبحت الأحلام ملكًا للجميع : مَنْ يستحم فى هذا البحر يحقق ما يشتهيه من أحلام . لقد ضاع عرش مملكة الأحلام من القرش ـ الثعلب » .

أَلْقَت رنا بحزمة الطحالب الحمراء في البحر ، وأخذت تتأمل فراشات الضوء وهي ترقص على صفحة



المياه المزركشة ؛ تشارك الأسماك والكائنات البَحْرِيَّة فرحتها بالنجاة ؛ ثم تصعد إلى السماء في شكل دائري . ظلت فراشات الضوء ترفرف بأجنحتها بينما يقترب بعضها من البعض الآخر ؛ حتى تقلَّص قُطر الدائرة ، وتشابكت الأجنحة ، وامتزجت الأبدان ؛ وشكلت شمسًا جديدة تشعّ بالضياء ، وتنشر الدفء في أرجاء الكون ، وتمدّ أَشِعَّتها على الأخَويْن الجالسين القُرْفُصاء على الصخرة ؛ تستحثهما على النهوض ، وتساعدهما في خلع ملابسهما ، وتدفعهما برفق ليقفزا في البحر ، ويحققا حلميهما ويصبحا فراشتين مبرقشتين بالألوان .





دوَّامـة الأعشـاب الزرقـاء

بعد أن أخفق القـرش ـ الثعلب في اختيار حلم مـلائم يستعيد به عـرش مملكة الأحلام ؛ خـرج من كهفه الذي اعتـزل فيه ، وجُنَّ جنونـه حين حَمْلَقَ في عَيْنَ الشمس الحمراء وشفتيها اللتين ارتسمت عليهما ابتسـامة ساخرة ؛ وكاد يفقد عقله عندما رأى الأسماك والكـائنات البحرية الصغيرة التي كانت تلوذ بالفِرَار حين تحسّ باقترابه ، أو تشمّ رائحته ؛ تلهـو حوله ، وتمّر أمام فمه المدجج بالأسنان القاطعـة ؛ بدون أن تبدر منها بادرة من الخوف . وأحسّ بإهانـة بالغة حين استلقت على ظهـره أسماك ذات عيون تلسكوبية جـاحظة ؛ وراحت تلتهم الغذاء المتساقط من سطح البحر غير عابئة به ، ومتجاهلة وجوده، انتفض غاضبًا ، وانقضّ على تلك الأسماك ليمـزقهـا إربًا ؛ فأفلتت مـن أنيابـه ، ونبتت لها أجنحـة ، وطـارت فوق سطح الماء . وسرْعـان مـا استحالت إلى صقور حلّقت فوقه ، وحاولت أن تنقر عينيه . إلا إنه غطس تحت الماء قبل أن تناله وهو يهذِي ويهمهم :

« أنا لم أفقـد عرش المملكة فحسب ، بل غذائي أيضًـا ! ومن الممكن أن أتضور جوعًا ! كلّ كـائن بَحْرِيّ ضعيف يستطيع الآن أن يصبح عُصْفورًا أو تنِّينًـا أو نِسراً حَالَ اقترابي منه كي ألتهمه ؛ وهـذا بفضل طحالبي الحمراء التي ذابت في البحر ، وجعلت الأحلام مشاعًا للجميع . . . لا بد من أن أهتدي إلى حلم أستعيد به العرش ، وينقذني من هذه الورطة » .

استشاط القرش ـ الثعلب غيظًا وكمدًا ؛ إذ لَمَح الأخويْنِ يسبحان سويًّا ، ويـرقصان الباليه مع الأسماك والسرطانـات ، ويغنِّيان لهم أغنيـة للبحر الذي تحرر ؛ ولفـراشات الضوء التـي أضحت شمسًا ؛ وللشمس التي تضحك ملء شِـدْقيْهَا وتـرحل إلى الأفق الغربي ــ فاندفع نحـوهما في غفلة ؛ من أجل أن يشفـيَ غليله بافتراسهما . أوشكت أنيابه أن تفتك بهما لولا أن أضاءت بعض الأسماك من أجسادها مصابيح خضراء وزرقاء وصفراء في وجهـه ، وتراقصت الأضواء الملونـة أمام عينيه ، وضربت الغشـاوة على بصره ؛ ظل يتأرجح يَمْنة ويَسْرة حتى اصطدم بوائل الذي شلّ الفزع يديه وقدميه ، وتهدده الغرق .

صرخت رنـا حتى بحّ صـوتها ، واستنجدت بـالأسماك والسرطـانات لتنقـذ أخـاها ؛ فـاستحـالت تلك الكائنات البَحْرِيّة من الفور إلى عشرات من النوارس والبجعات البيضاء ؛ رفرفت فوق سطح البحر؛ ثم مدَّت مناقيرها ، وحمَلَت وائلا ، وصعدت به إلى الفضاء قبل أن يفترسه القرش ـ الثعلب بعد أن استعاد توازنه .

قالت البجعات والنوارس لوائل بعد أن استشعرت ثقل جسده :

« لِمَ لا تصبح بجعة أو نورسًا مثلنا بعد أن خضَّبت جسدك بماء البحر ؟ » .

غمغم وائل قائلاً :

« سأصبح أنا ورنا فراشتين تمتصان الرحيق من زهرة اللؤلؤ ، وتستمتعان بدفء ذراعيها المخمليتين» .

الْتَفَت وائل حواليه ؛ فلم يَرَ أثرًا للقرش ـ الثعلب ولأخته أيضًا ؛ فصرخ باكيًا :

« لقد افترس القرش ـ الثعلب أختي ! كيف أستطيع أن أحقق حلمي بدونها ؟! سوف أصبح فراشة وحيدة تضيع في الفضاء بلا رفيق !! وراح يضرب النوارس والبجعات بيديه الصغيرتَيْنِ حتى ناءت بحمله ؛ فهبطت رويدًا رويدًا إلى أن اقتربت من سطح البحر وأَلْقَت به برفق .

سمع وائل صراخ رنا يأتي من بعيد خافتًا ؛ فسبح نحو مصدر الصوت وهو يرتجف من الحزن ؛ ليكتشف أن أخته قد أسرت في دوامة من الأعشاب الزرقاء الكثيفة ذات الشكل البيضاوي . لم يَرَ إلا يديها الممدودتينِ نحوه ؛ فسارع بالإمساك بهما ، وراح يشدهما بأقصى ما يملك من قوة ؛ ليجتذبهاَ خارج دائرة الدوامة ، لكنها أسرته مع أخته ، وأخذت تدور حول نفسها في بطء وأناة . استسلم لليأس ، واستلقى جوار أخته التي أُغْشِي عليها . أغمض عينيه ، وأحسّ بالدُّوَار عندما بلغت سرعة الدوامة العشبية ذُرْوَتها ، وفوجيء بأنها تلقي بهما في أُخْدُود بَحْرِيّ عميق ؛ تتساقط عليه سيول الوَحْل من قمة جبل السَّمَنْدَل الأحمر الذي كان واقفًا بلونه المزركش ؛ يقهقه عاليًا كبهلوان عجوز ، ويبرز لسانه اللَّزِج إلى الأمام .

لم يشعر وائل بما حدث له بعد سقوطه في الأُخْدُود ؛ فلقد فَقَدَ وَعْيَه من الخوف ، ومن كرات الوَحْل التي تساقطت على وجهه . ولما أفاق بحث ببصره في هلع عن رنا ، حتى وجدها ملقاة جواره مغطاة تمامًا بالوَحْل اللَّزِج ؛ فغسل جسدها بماء البحر ، وربَت على خدَّيْها حتى استفاقت ـ هي الأخرى وأخذت ترنو إليه في ذهول .

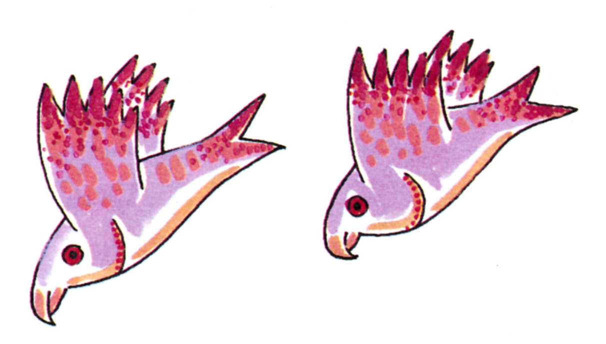
ارتعش جسد رنا ، وتقلصت عضلات وجهها لدى انبعاث صوت انفجار رهيب من أحد الكُهُوف البَحْرِيَّة . كانت الحيتان الغاضبة تحطم باب الكهف الذي أوصده القرش ـ الثعلب على نفسه . غطت رنا وجهها بيديها ؛ لكيلا تصيبها قطع الصخور المتطايرة ؛ ثم دفنت رأسها في صدر أخيها الذي كان يحملق بدهشة إلى الحيتان المتجمهرة أمام الكهف ؛ وكانت تعبر عن غضبها بإحداث زفير قويّ عبر المُنْخُرَيْنِ تارة ؛ وبلَطْم الماء بزعانفها تارة أخرى ، وبدَا أنها تفعل ذلك لإجباره على الخروج من مخبئه .

ولم تكن الحيتان تعلم أن السَّمَنْدَل الأحمر المزركش قد هبط من الجبل توًّا ، وتسلل إلى الكهف الذي يعتزل فيه القرش ـ الثعلب ، ولم يعطِه أية فرصة للتفكير في اختيار حلم ملائم ؛ من شتَّى الأحلام المتناقضة التي تراءت له ، وأفرز في فمه المفتوح سائلاً لاذعاً يسبب إحساسًا بالحريق ، وعضَّه في ذَنَبه ثم لاذ بالفرار .

صرخ القرش ـ الثعلب من الألم ، وخرج من كهفه غير مكترث بالحيتان المتجمهرة أمامه ، وراح يدسّ أنفه

في أجسادها ويضحك بشكل هيستيري ؛ وهو يستحيل مرة إلى سلحفاة بحْرِيَّة تسبح ببطء حول ذيولها ، ومرة أخرى إلى أفعَى تتلوَّى أمامها ثم تسبح نحو جبل الخفافيش ، ولحظة أن قررت الحيتان الفتك بالأفعى ؛ استحالت إلى هُدْهُد تنبعث منه رائحة كريهة ؛ أخذ طريقه إلى سطح البحر ، وظل يرفرف بأجنحته ، ويغرد بصوت أجش متقطع يشبه عُوَاء ذئب جائع ؛ أيقظ الخفافيش من نومها .

أطلَّ خفاش عجوز من إحدى نوافذ كهفه ، وأرسل ببصره نحو ذلك الطائر القذر الذي اعتاد أن لا ينظف جسده منذ الولادة حتى المات ؛ ولم يستطع أن يقاوم إحساسه بالغثيان فتقَّيأ ؛ ثم قرر أن يفتك به ؛ فطار نحوه ، واعتلاه ، ووخز رقبته بأسنانه الحادة ، وامتصّ دمه .





أمــومــة

رأى وائل ذيل حوت يتـدلَّى أمامـه من حافـة الأُخْدُود ، ولم يجد أمامـه مفرًا من استخـدامه حبـلاً للنجاة والخروج من هذا المأْزِق .

حدَّق إلى عينـى أخته الزائغتين التـي كانت لا تـزال تنتابها حـالة من الـذهول ، وصرخ في وجههـا لعلها تستفيق ؛ بيد أنها لم تعره الْتِفَاتًا كأَنَّمَا لا تشعر بوجـوده ؛ دفعها بيديه نحو ذيل الحوت ، وحثّها على الإمساك به لكنه لم يستطع أن يبسط يديها المتصلبتيْنِ ؛ فهزّ جسدها بعنف حتى كادت تنكفيء على وجهها ؛ وعندئذ استفاقت من ذهولها ، وتفرست وجهه كأنها تراه لأول مرة ؛ انحدرت دمعتان من مقلتيها ، وصرَّت أسنانها ، وأخذت تصدر نشيجًا مكتومًا . ضمَّها وائل إلى صدره ، وهمس في أذنها :

« لا بد أن نتسلق ذيل الحوت حتى نخرج من هذا الأُخْدُود قبل أن نتعرض للهلاك » .

تعّرفت رنـا إلى نبرات صوت أخيهـا ، وبدأ الشعـور بالأمـان يتسرب في كيانها ، وقالـت : « لقد سمعت شقشقة عصفـور تأتي من الفضاء البعيـد ، وسمعت أمي وهي تقلِّب قطعًا من السكـر في كُوب من الحليب لتعطيني إياه .

ورأيتهـا وهي تجدل ضفيرتي ، وتضع الفطـائر في حقيبتـي ، وتصحبني إلى المدرسـة ، وأحسست بيـديها الدافئتين دائمًا . لقد اشتقت إليها كثيراً ـ يا وائل ـ فهل ستتاح لنا فرصة لقائها قبل أن نموت ؟ » .

أحس وائل بحزن دفين يتفجـر في أعماقه ؛ لكنه لم يشأ أن يستدرج إلى تلـك المشاعر التي قد تشلّ قـدرته على التفكير في هذه اللحظـات الفاصلة من حيـاتهما ، ولذلك ؛ أمر أختـه بلهجة صارمـة بأن تبدأ في تسلق ذيل الحوت . نظـرت إليه رنـا في دهشة ، ونفذت مـا أمرهـا به وقلبهـا يكاد يسقط مـن الخوف . صعد وائل خلفها ، وساعدهـا في الصعود حتى وصلت إلى حافة الأُخْدود . سبحت رنا بـرفق محاولة الابتعاد عن الحوت بـدون أن يشعـر بها ؛ الْتَقت عينـاهـا بعينَي الحوت فكـادت تعصف بها الـرهبـة ، وسُرْعـان مـا استعـادت سكينتها ؛ إذ رأت حزنًـا جليلاً ينبعث من عينيه . تملكها شعـور بالتعاطف نحوه ، واقتربت منه وهي تنظر بلوعة إلى زَعْنَفَتَيْه اللتين يهزهما بيأس .

همس إليها وائل :

« إنها أنثَى الحوت تفتقد صغيرها الذي افترسه القرش ـ الثعلب » .

قالت رنا بصوت متهدج :

« هل ستحزن أمي مثلها عندما يحدث لي مكروه ؟ » .

لاذ وائل بالصمت ، وراح يقضم أظافره ؛ فلقد أربكه هـذا السؤال المفاجىء . . . فهل ستشعر أمه حقًّا بهذا الحزن العميق عندمـا تفتقد ولديها أم سينتابها مجرد كَـدَر أو ضيق للحظات ؛ تنشغل بعدها في أبحـاثها عن زهرة بريَّة أو شجرة نادرة ؟

واعتصر الحزن قلبه لمّا لم يهتد إلى إجـابة حاسمة عـن هذا السؤال الذي اجتـاح مشاعره ، وأطاح بـرباطة جأشه ؛ فدفن رأسه في كومة من الأعشاب ، وانخرط في بكاء مرير .

لم تلحظ رنا مـا جَرى لـوائل ، لأنها انشغلت بتأمل أنثَى الحوت التي حملقت إلى الماء ، واغرورقت عينـاها وقد تراءى لها صغيرها الذي رحل وهو يلهو بجذع شجرة عملاقة ويقذفه عاليًا .

لطمت أنثَى الحوت طين القاع بزَعْنَفَتَيها القويتين ؛ فأحدثت فيه فجوتين عميقتين وارتجف جسدها حين رأت الطحالب الفضيَّـة تتشرب لون الدم الأحمر القاني ؛ ثم أطلقت صرخـة هائلة اهتزت لها مخلـوقات البحر والبَر ؛ حتى الطيور البحرية التي كانت تحلق وقتئذٍ في الفضاء توقفت عن الرفيف والزقزقة ؛ وكادت تهوي في البحر .

نظـرت أنثَى الحوت بعينيهـا المحمرتين إلى الأخـوين اللـذين بـدَا عليهما الهلع ، وأومأت إليهما بأن يقتربـا منهـا ؛ فسبحـا نحـوها بحـذر بـالغ ؛ وعنـدئذ ربتَت بـزَعْنفَتيهـا على جسـديهما بـرفق حتى تبثّ في قلبيهما الطُّمَأْنِينة ، وأشارت إليهما بامتطاء ظهرها ، وصعدت بهما إلى سطح البحر .



محـاولـة انتحـار

تمدد الأخوان فـوق الأعشاب المخمليَّة التي تغطي إحدى الصخـور ؛ ليلتقطا أنفاسهما بعد المغـامرة التي كانـت ستودي بحياتهما ، وسرَى في كيـانيهما شعور بـالأمان لم يـدركاه من قبل ؛ حين أحـاطتهما أنثَى الحوت بزَعْنَفَتيها مثلما يحتضن الطائر أفراخه ؛ خوفاً عليها من الجوارح .

جلست رنا القُرْفُصاء ، وأطالت النظر إلى عينيهـا الزائغتين ووجهها الوديع . رأت بضع قطرات من اللبن تنساب على صـدرها ؛ فـاجتاحتهـا رغبة عـارمة في أن تمتصّ حلميتهـا ؛ أمالت رأسهـا على ثديها ، وهمَّت بالرَّضَاعَة ؛ إلا إنها تراجعت أمام مَلمس جلدها الخشن الذي بدأ يتشقَّق بفعل حرارة الشمس .

نهضت رنا من جلستهـا وقد تركز بصرهـا على أنثَى الحوت ؛ فإذا بعينيها تفقدان بريقهما ، وإذا بـزَعْنفتيها تأخذان في الارتخاء .

قالت لوائل مندهشة :

« هل سمعت من قبل عن حوت يلجأ إلى الانتحار حزنًا على صغيره الذي رحل ؟! » .

انتفض وائل واقفًا ، وطاف حول أنثَى الحوت ، وتحسَّس جلدها الذي تنتشر به الشقوق الغائرة والقروح . حدَّق إلى وجـه الشمس كأنه يـرجوهـا أن تخفّف النار المستعرة التي تتلظَّـى بلهيبها أنثَى الحوت ، وتضرَّع إلى السحابات أن تقطر من ضروعهـا مطرًا وبرداً وسلامًا عليها . انقبض صدره عنـدما رأى قطرات اللبن تتخثر على أثدائها ، وتستحيل إلى حبيبات صفراء ، وشهق حينما أغمضت عينيها ببطء وخالها تُحْتَضَر.

تلَفَّت وائل حواليه مشغوفًا آملاً في العثور على دلو أو إناء أو علبة فارغة ؛ ليأخذ من ماء البحر ويرشّ على جسدهـا ؛ ليقيَها من حرارة الشمس ؛ لكنـه لم يجد إلا بضع أصداف مهشمـة وفروع أشجار يـابسة . صرخ وائل في وجه رنـا التي استسلمت لبكاء يـائس ؛ فهُرِعَت إلى مسـاعدته ، وقفـزت في البحر ، ومـلأت فمها الصغير بالماء ، وعـادت لترشّه على الجسـد اليابس لأنثَـى الحوت . وحذا وائل حذوهـا عدة مـرات من دون جدَوى ؛ فلقد ظلت أنثَى الحوت على حـالها ، ولم تبدر منها إيماءة أو حركة أو همهمـة تدل على أنها على قيد الحياة .

خيم اليأس على الأخوين الملتاعين ؛ فجلسا يترقبان موتها بين لحظة وأخرى .

فجأة خرج من البحر جيش من المحارات كانت تصعد في أفواج فوق الصخرة ، وتفتح أصدافها وتطبقها



بقوة ، فتقذف بالماء ـ مثلما تقذف الطائرة النفاثة بالهواء ـ على جسد أنثَى الحوت ، وكررت ذلك مرات ومرات حتى فتحت أنثَى الحوت عينيها وقفزت المحارات في البحر مرة أخرى .

سمع الأخوان أنينًا خـافتًا وعويلاً مكتـومًا ينبعث من جسد أنثَى الحوت ؛ ثم شهقة هـائلة تشبه الصهيل الأخير لخيول تطـويها الكثبان الـرملية وارتج جسـدها ارتجاجًـا عنيفًا حتى خيـل إليهما أن زلزالاً رهيبًـا يقذف بالصخرة في الفضاء .

التقط الأخـوان أنفـاسهما ، وراودهما الأمل في أن تعود أنثَى الحوت إلى البحـر ، وتنضم إلى قطيع الحِيتَـان الذي رحل خلف الجبال الـزرقاء البعيدة . ومَّرت عليهما لحظات ثقيلة من الترقب والانتظـار ؛ لم يطرأ خلالها أي تغير على موقف الأم التي بدَا أنها فقدت رغبتها تمامًا في الحياة .

لم يستسلم وائل لليأس ؛ ووقف على حافة الصخرة ، وشرع في أداء أغنية الحِيتَان ؛ فانطلقت من حنجرته حَمْحمة خيول وخُوَار بقـر وهَدير أنهار وصلصلة حديد وصليل سيوف ، وشدَا صـوت رنا بهديل حمام وخرير مياه ورفيف فراشات وحفيف أشجار وهَسْهسة إبل ؛ ثم كفَّا عن الغناء ، وأخذا يقلدان نداء ات الحِيتَان من هدير وصراخ وعُواء ونَقْنقة ونُباح ؛ حتى بحّ صوتاهما ، وانكفآ على الصخرة ، وأجهشَا بالبكاء .

اختلط بكاؤهما بضـوضاء آتية من جهة البحـر ؛ رفعا رأسيهما ؛ فرأيـا جبالاً من الزَّبَد الأبيض وأهـرامات زرقاء من الأمواج الهادرة تكاد تبلغ عَنَـان السماء . كانت الحِيتَان تسبح نحوهما ، وترفرف بـزعانفها كأنها طيور خرافيـة بعثت من عصر آخر بعـد انقراضها . غنَّت الحِيتَـان ـ كما لم تغنِ من قبل ـــ وجلجلت أصواتها حتى فاض البحر على شـاطئيه ، وأوشكت النجوم أن تغير مساراتها حـول مجراتها ؛ لتنصت إلى هذا الغناء المهيب لولا خشيتها من اصطدامهـا بالمجرات الأخرى ؛ ممّا قد يؤدي إلى فناء الكـون ؛ فاكتفت بما ترامَى إلى أسماعها من نغمات خفيضة .

نهضت أنثَى الحوت بتثاقل ، وأبصرت قطيع الحِيتَـان الذي اقترب من الصخرة وتمتمت بالغنـاء ؛ فانطلق من حلقهـا صوت يشبـه الحشرجة أحيـانًا والهمهمـة أحيـانًا أخـرى . صعد زوجهـا إلى الصخرة ؛ فـاعترتها قُشَعْريرَة هـائلة ؛ أومأ إليها بأن تقفـز في البحر ؛ فرفضت الامتثال لأوامـره . أصدر زوجها هديـرًا غاضبًا ، ودفعها بزَعْنَفتيـه حتى اقتربت من حافة الصخرة ؛ بيد أنها رمقته بتحـدٍ وزأرت زئيراً مخيفًا ؛ ثم أقصته بعنف حتى عاد القهقرَى رغمًا عن إرادته ، وربضت هي في مكانها ، بينما تنشـد الحِيتَان تراتيلَ تشبه نحيب الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن في حروب خاسرة .

أغرقت رنا في البكاء ، وارتعشت أهداب أنفها ، وارتجفت شفتاها ، وبَدَت كعصفور صغير يطَوِّف حَول عشّه بعد أن اختطف النِّسر صغاره ؛ ثم قفزت في البحر تـاركة وائلا في دهشة من أمره . وبعد قليل صعدت جوار أنثَى الحوت ، وتمتمت بكلمات لم يستطع أن يتبينهـا وائل الذي خيل إليـه أنها استحالت إلى فيل أبيض صغير ؛ ظلّ يدور حـول أنثَى الحوت ، ويدّب على الأرض حتى تمخضت الصخـرة عن سحابـة من البخار الأزرق الكثيف ؛ راح يرقص رقصًا إيقـاعيًّا على دبيب أقدامه . ورويدًا رويدًا خـرج من البخار حوت رضيع

رَمَادي اللـون ؛ فتح شِدْقَيـه ، واندفـع نحو أمه في لهفـة يمتصّ ثديها اليـابس ؛ فلمَّا لم يجد بـه حليبًا ضربها بزَعْنَفَتيـه غاضبًا ، وكرر محاولتـه حتى انفجرت من حلماتها نافورة من الحليب الـدافيء ؛ كست وجه وذراعي وائل الذي انتفض مشدوها . ولمَّا شبع الحوت الصغير ؛ قفز في البحر يلهو ببقايا قارب صغير دفعته الأمواج نحوه ؛ فقفزت أمه خلفه ، وأحاطته بزَعْنَفَتيها ، وانضمَّا إلى قطيع الحيتان الذي كان يتأهب للرحيل مرة أخرى خلف الجبال الزرقاء البعيدة . ولم يلحظ أحد أن الحوت الأب رابض على الصخرة تنتابه حالة من الهذيان بعد أن رأى ابنه يبعث حيًّا ، أو أن وائلا قد صفعته المفاجأة وعقدت لسانه ؛ فمدّ ذراعيه كضرير ضلّ خطاه نحو أخته التي صارت حوتًا ، وافترقت عنه من جديد .



فراشــة الأمـــيرة الحمـــراء

هـا هو وائل الآن وحيـداً على الصخرة شـارد اللب محيَّر الفكـر ؛ بعد أن خـذلته أختـه ورحلت بمحض إرادتها ؛ لم تفسر له موقفها ، ولم تودعه بكلمـة أو إشارة تهدىء روعه . ولقد رحل الحوت الأب هو الآخر وراء أنثاه وصغيره الذي ولِدَ من سحابة من البخار الأزرق ، بدون أن يرهق عقله بتفسير ما حدث .

كيف يتخذ وائل قراره بعـد كل هذا العناء الذي كابـده ؟ هل يصبح حوتًا ويلحق (برنـا) أم يصبح فراشة مزركشـة الألوان تنهل الرحيق من زهرة اللـؤلؤ التي يتوق إلى الاسترخاء على ذراعيهـا المخمليتين ، والنوم على بَتَلاتها الدافئة ؟

تَذكَّر مذاق قطرات الرحيق التي تدفقت من تُـوَيجها وانثالت على وجهه كحبات المطر ؛ فلحس شفتيه . وتراءت له زهرة اللؤلؤ كعروس البحر التي تشكلت من الزَّبَد الأبيض ، واتكأت على حافة الصخرة ، وقالت له بصوت يشبه مُوَاء قطة تحتضر :

« إياك أن تتخير حلمًا يقْصِيك عني » .

انهمـرت الدمـوع من عيني وائل ، وامتزجت بقطـرات الحليب التي تخثـرت على وجهه ، والتقطت أذنـاه أصواتاً تشبـه رجفة الناي وأنين الكمان ورعشة الريح ، وخـال رنا واقفة على قمة الجبال الزرقـاء البعيدة تشدو بأغنية الحيتان ؛ فارتجف جسده ، وسـاءل نفسه في حيرة :

« كيف أحنث في وعدي لـزهرة اللؤلـؤ ؟ وكيف أصير كاذباً أمام الفـراشة الملكة التي أقسمت أمـامها أن أكون فـراشة ؟ قـد تموت مَا لَمْ أحقق حلمي الـذي اخترته بإرادتي . . . لقد خـذلتني رنا مـرتين ؛ مرة عنـدما تلكأت في المجيء معى إلى مملكة الأحلام في بـادىء الأمر ، والمرة الأخرى عندمـا جاءت واستقرت على حلم يحقق لها الفرح ، ورحلت بمفردها بدون أن تعبأ بى .

اعتصرت الأحـزان قلب وائل ، وهصرت الأفكار المتضـاربة عقلـه ، وأخيرا ؛ حسم أمره وقـرر أن يصبح فراشـة . غطس في البحر دامع العينين ؛ ثم صعد مـرة أخرى ؛ ولم ينتبـه إلى قطرات الحليب التي يبست على ذراعيه وحالت دون بللهما بالماء .



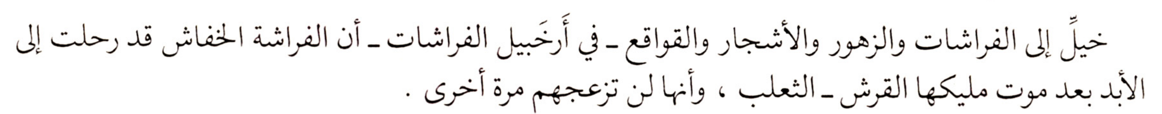
في بادىء الأمر تضاءل جسده حتى استحال إلى زهرة ؛ ثم نبَتَ من الأوراق جناحان ، ومن الجِذْر ذيل مبرقش بالألوان ، ومن التُّوَيْج رأس صغير لفراشة الأميرة الحمراء ــ مشَى على الصخرة مزهوًّا ، وحاول أن يختبر قدرته على طيران الرفيف ؛ بأن حرّك أجنحته بشكل دائرى ؛ فارتفع قليلاً عن الأرض ثم سقط . تطاير رذاذ الماء على جسده ، وسرت فيه قُشَعْرِيرَة . عاود المحاولة لكنه سقط من جديد ، وكاد جَنَاحاه يتهشمان .

أصيب وائل بهلع ؛ وتأمل جناحَيْهِ الشفافين اللذين تبرز منهما العروق ؛ جناحيه العاجزين عن امتصاص أَشِعَّة الشمس ؛ وعندئذ أدرك سّر عجزه عن الطيران ، واكتشف أن قطرات الحليب التي حالت دون بلل ذراعيه عندما كان بشراً هي التى تسببت في تلك الكارثة . انزوَى بين الطحالب الخضراء وهو يرتجف من البرد ، وتذكر آلاف الحَرَاشِف الصغيرة التي رآها تغطي جناحَي الفراشة الملكة والتي بدت حمراء حين انعكست عليها أشِعَّة الشمس ؛ برغم أن كل حَرْشَفة منها كانت بلون يختلف عن الأخرى . امتلأ صدره حنقًا إزاء الفراشة الملكة التي تمتلك جَناحَين مزركشين ، ونَدَب حظه العاثر ؛ فلقد فقَدَ كل شيء ، وصار حلمه كابوسًا : الآن لن يستطيع أن يلتقي زهرة اللؤلؤ ، ولن يستطيع أن يلحق بالحوت الصغير ؛ أخته التي رحلت إلى الجبال الزرقاء البعيدة .

حملق وائل بحسرة إلى حواشي الظلّ الحمراء التي تتأرجح حول قرص الشمس ، وقرر ألا يستسلم لليأس ، وأن يبحث عن حل سريع يجعله قادراً على الطيران ؛ قبل أن يتبدَّد أمله ، ويروغ منه آخر شعاع للشمس التي بدأت في الرحيل إلى الأفق الغربي . اتكأ وائل على السُّعُوف المموجة للطحالب الخضراء ، واستغرق في تفكير عميق . أحسَّ ببعض الدفء يتسرب في عروقه ، وتهلل من الفرح حين رأَى بقعًا خضراء تنتشر على جناحَيْه . نظر بامتنان إلى الطحالب الخضراء التي روت جناحيه بعصيرها الأخضر ، وركض حول حجر ساخن ومرَّغ جسده عليه ، وامتصّ آخر شعاع للشمس قبل أن ترحل . حرك جناحيه بوجل ؛ فارتفع عن الأرض رويدًا رويدًا ثم انزلق ببطء كأنه يهبط بمِظَلَّة . أشرق وجهه من الفرح ، واختبر قدرته على الطيران عشرات المرات حتى ملأته الثقة ؛ ثم قرر الرحيل إلى أرخَبيل الفراشات ، وطار بشكل دائري حول الطحالب الخضراء التي كانت بعض سُعُوفها قد تهدلت ؛ بعد أن منحته عصارتها الخضراء والريح تذروها ، وتلقي بها بين جبال الزَّبَد البيضاء .



الشجـرة القاتلـة



خيلّ إلى الفراشات والزهور والأشجار والقواقع ـ في أرَخَبيل الفراشات ـ أن الفراشة الخفاش قد رحلت إلى الأبد بعد موت مليكها القرش ـ الثعلب ، وأنها لن تزعجهم مرة أخرى .

ولقد خاب ظنهم ؛ لأن الفراشة الخفاش لجأت إلى حيلة تستقر بها بينهم ؛ من دون أن يشعروا بها ؛ فلقد ملأت سرًّا عـدة قنينات من ماء البحر ـــ عندما تحرر ـــ وسكبتها على جسدها ، واستحـالـت إلى شجرة التِّين البَنْغَـالي الطفيلية الـزاحفـة ، وفي لحظات قصيرة كـوَّنت غـابة كبيرة ؛ تـدلَّت خيـوطها في الهواء مثل خيـوطِ لعَنْكَبُـوت عملاق ، وتأرجحت هي مـن النشوة ، ومـدَّتها باستخفـاف نحـو الأشجار التي تنتشر حـولها ، وامتصَّت مـا في خلاياهـا من الغـذاء والسكر ؛ ثم خنقتهـا واحدة تلو الأخـرى ، وأحسَّت بلـذة كبيرة لدى سماعها طقطـة الفروع المتكسرة وهسيس الجذوع التـي هصرتها هصرًا ، وضحكت كساحـرة عجوز حين رأت أوراق الزهور الذابلة تتناثر حولها وهي تدوس عليها بجذورها القوية .

ألقت شجرة التِّين البَنْغَالي نظرة ساخرة إلى النمل النسَّاج ، بعد أن فرغ من صنع قلعة من الكرتون بعجينة الخشب ؛ من أجل فراشات الأحـلام التي باتت عاجزة عن الطيران ؛ لأنها لم تجد زهـورًا تمتصّ رحيقها ؛ بيد أن الفراشـات رفضت الامتثال لأوامر مليكتها بـالدخـول إلى القلعة ؛ بـرغم تحذيرهـا لها من اقتراب الجذور الخانقة لشجـرة التِّين البَنْغَالي . تجمهرت فـراشات الأحلام حـول الزهور الـذابلة ، ومدَّت خـراطيمها داخل كؤوسها عساها تمتصّ رحيقها وتستعيـد قدرتها على الطيران ؛ ولم تجد إلا بضع قطرات من الماء المشبعة بالغُبَار وحبيبات الرمـال . تلَفَّتت الفراشات حولها بهلع فلم تجد إلا زهـرة اللؤلؤ ؛ وهي الزهـرة الوحيدة التي بقيت على قيد الحيـاة في الأَرْخَبيل ؛ زحفت نحوها غير عابئـة بجذور الموت التي مدَّتها شجرة التِّين البَنْغـالي لتَحُول بينها وبين زهرة اللؤلؤ .

تضَّرعت زهرة اللـؤلؤ إلى الفراشـات اللاتي تستنزف رحيقهـا ، بأن تترك بضع قطرات من الرحيق لفـراشة الأميرة الحمـراء التي كانت تتطلع إليهـا وهي تـرفرف في السماء ؛ لكن الفـراشات لم تعبأ بتضرعهـا ، والْتفَّتِ الجذور الخانقة حول أعناق بعضها فلفظت أنفاسها في الحال ؛ بينما اكتَفَت الفراشات الأخيرات بما حصلت عليه من رحيق ، ولاذت بالفِرَار من الأَرخبيل .

أَلْقَت زهـرة اللؤلـؤ بنظرة إلى الجذور التي حـاصرتها وأحكمت عليهـا الحصار غير مبـالية ؛ كأنها لم تَعُـد تكترث بـالموت ، وتابعت بعينيهـا الدامعتين فـراشة الأميرة الحمـراء التي كانت تجوب الأَرْخَبيل بحثًا عنها ؛ وعجزت عن رؤيتها وسط زحام أوراق الأشجار الذابلة التي تناثرت حَولَها وشكلت تلالاً صفراء .

شهقت فراشة الأميرة الحمراء حين تأرجحت أمامها ورقتان ذابلتان ؛ ورقة صفراء بحواف بُنِّيَّة ، وورقة مبرقشة ببقع الدم ، وأيقنت أن أرخبيل الفراشات قد تعرض لكارثة ما حين رأت الخراب الذي حلّ به ، وتلال الأوراق الصفراء التي تنتشر في كل مكان ، وأدركت أنه لم يعد وطنًا للفراشات والأشجار والزهور والأحلام ، وتساءلت في حزن بالغ :

« ألن ألتقيَ بزهرة اللؤلؤ بعد كل هذا الرحيل ؟ » .

طافت حول الأَرَخَبيل وهي تنقب ببصرها عن زهرة اللؤلؤ ؛ لكنها لم تتبين إلا شبكة الجذور الخانقة التي جثمت على صدر الأرض حتى ضاقت بها ؛ كمُلاَءة سوداء مثقبة نشرت على سرير من الصَّلْصَال الأصفر اليابس .

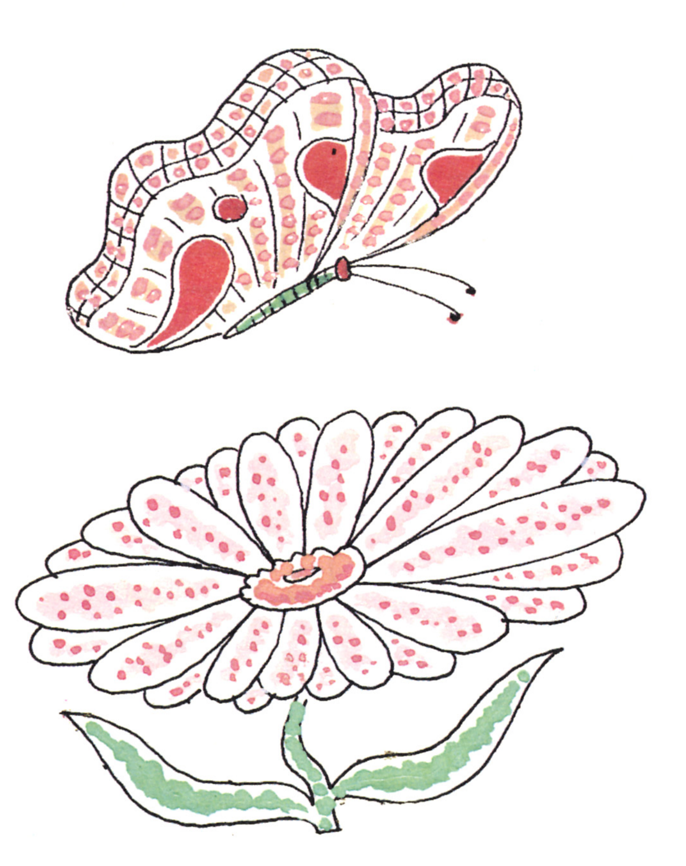
زاد اللون الأصفر إحساس فراشة الأميرة الحمراء بالإعياء والوَهَن ؛ فتطوحت بعنف وأوشكت أن تسقط على أحد الأغصان اليابسة ؛ بيد أنها استطاعت أن تستعيد توازنها قبيل أن تنالها الجذور التي امتدَّت نحوها كمخالب قِطّ جائع . خمشت حَراشِف جَناحَيْها ، وحملقت إلى السماء بيأس ؛ فإذا بالشمس تنتفخ حتى تصبح كرة كبيرة حمراء من نار ؛ شعرت بأن لَظَاها يكاد يحرق جناحيها . حطَّت على شجرة صهباء عملاقة لم تصل إليها جذور الموت بعد ؛ تحتمي بظلالها ؛ غير أنها كانت شجرة بلا ظلال تتجه أوراقها الصغيرة عموديا نحو ضوء الشمس .

فار البحر كأن أحدًا أشعل في قاعه آبارًا من النِّفْط . غمَر الأَرَخَبيل بماء زُعَاق شديد الملوحة ، وفرَّت إلى الشاطىء أعداد هائلة من المحارات التي لم تحتمل ملوحة مائه وحرارته التي اقتربت إلى درجة الغليان . انتزعت الجذور الشرسة أصداف المحارات ، واعتصرت أجسادها الطريّة حتى تساقطت واحدة تلو الأخرى .

تأجَّجَت نار الشمس إلى حد أن شعرت فراشة الأميرة الحمراء بأنها تُشْوى في فرن ، وانصهرت أجساد المحارات واستحالت إلى بركة من الغراء الشمعي الأصفر ؛ غلَّف الأشجار المهشمة والزهور الذابلة .

اعترت فراشة الأميرة الحمراء نوبة من النشيج والبكاء اليائس ، وتتبعت بعينيها الذاهلتين مجرَى الشمع المصهور ؛ فرأته يتلوَّى كأُفْعُوَان يحاصر زهرة اللؤلؤ التي تهدلت أوراقها ، واستسلمت للموت . زخفت نحو زهرة اللؤلؤ في لهفة كأنها تتقلب على جمرات من النار ؛ مدَّت خُرْطُومها في تويجها ؛ فلم تجد إلا قطرات من المِلْح الأُجاج الساخن ؛ رقدت على الأرض وترقبت الموت بين لحظة وأخرى . فوجئت بالفراشة الملكة تجذبها بخُرْطُومها إلى قلعة الكرتون ، وظلت ترفرف بجَنَاحيها فوق جسدها الملتهب حتى بردته .

ومن إحدى نوافذ القلعة اشْرَأَبَّت ؛ فرأت زهرة اللؤلؤ مغلفة برداء من الشمع الأصفر كأنها تمثال فى مُتْحَف الشمع ؛ أشاحت وجهها وتطلعت إلى السماء ؛ حين سمعت هدير العواصف وزئير الرعد . رأت السحابات السوداء تلتف حول قرص الشمس الأحمر وتنصهر تباعاً ؛ ثم تنهمر مطراً مدرارًا رطَّب وجه الأَرَخبيل المستعر ، والعواصف الهوجاء تقتلع شجرة التِّين البَنْغَالي وتلقي بها في البحر ــ تأرجحت قلعة الكرتون حتى طارت في الهواء وتمزقت صفائحها ، وسقطت الفراشتان في البحر على زورق صغير من قشور شجرة البَلُّوط ، والْتَاعت فراشة الأميرة الحمراء وهي تتابع زهرة اللؤلؤ بأوراقها الشمعية الصفراء ، بينما كانت تختفي بين تلال الفروع المهشمة ، وتستسلم لنوم عميق .





الصُّحـــون البــاردة

فرغ وائل من قصّ روايتـه فراشة الأميرة الحمراء على أختـه رنا . نظر بضيق إلى الصحون البـاردة المرصوصة أمامهما على مائدة الطعام ؛ وقال لأخته :

« لقد فقدت شهيتي تمامًا » .

نهضت رنـا متثاقلة ومـن النافـذة أبصرت قرص الشمس الـذي نشر ظلاله الحمـراء على الزجـاج المُغَبَّش بالغبار . ترقرقت دمعتان في عينيها ، وقالت لوائل :

« لقد أوشكت على الغروب ولم تأتِ أُمي بعد » .

وعلّق وائل مهمومًا :

لقد نسيت آخر مـرة تناولنا فيها الطعـام مع أمّنا منذ أن رحل أبي إلى معمله البَحْـرِي في البحار البعيدة ؛ لكي يحقق حلمه بُسكْنَى البشر في قيعان البحار . . . يبدو أنها كانت منذ شهور تقريبًا » .

الْتقطت رنا رواية أخيها ، ورسمت على غِلَافها الفراشة الملكـة وحيدة في قلعة الكرتون ؛ تطل من نوافذها دامعة العينين على أَرَخبيل الفـراشات الذي حلّ بـه الخراب ، ورسمت في صفحاتها الداخليـة بحيرة الأحلام التي تتبخـر بفعل حرارة الشمس ، وزهـرة اللؤلـؤ التي ينثال رحيقهـا على الأرض وتمتصّه التربـة الصَّلْصَاليَّة الصفراء ، وفـراشة الأميرة الحمراء لا تقـدر على أن تنال قطرة واحدة منـه ، وشبكة الجذور الأُفْعُوانيَّـة لشجرة التِّين البَنْغَالي وهي تلتهم الصَّلْصَال المشبع بالرحيق .

كفَّت رنـا عن تلوين لـوحاتها حين سمعت صريـر البـاب . أخفَتِ الـرواية وعُلْبَـة الألوان تحت المائدة ، وأصابها الارتباك .

دخلت الأم مهرولة وهي تحمل أوراق أشجار متنوعة ؛ بدَا أنها قد خضعت للفحص والتشريح .

رنَا الأخـوان بأَسًى إلى أوراق الشجر الصفراء التي بـرزت عروقها ، والتقطا بضع لُقَيمات من الطعـام بدون شهية .

لم تقدم الأم أي تفسير لغيابها المفاجىء وحنثها في وعدها ، ونظرت بغضب إلى الصحون الممتلئة بالطعام ؛ ثم جالت أرجاء الغرفـة ببصرها بحثًا عن لُعْبة أو كتاب أو كُرَّاسة رسم ؛ حتى عثـرت على الرواية الملقاة تحت

المائدة ؛ قَلَبَت أوراقها بعصبية ، وقرأت بعض كلماتها بغير اكتراث ، وقالت لهما بسخرية :

« الأحلام مفسدة للعقل ، وهي تجعل الإنسان يستغرق في أوهام لا طائل من ورائها ، والنوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام ، والإنسان العاقل هو الذي يلجأ إلى العِلْم لحلّ مشاكله ، ولو كنتما تتسمان بعقل حصيف لتناولتما طعامكما بدلا من إهدار الوقت في الكتابة والرسم » .

ألقت الأم بالرواية بإهمال على الأرض ، وهمَّت بمغادرة الغرفة ؛ فأسرع وائل إليها وضمَّها إلى صدره ، واستوقف أمه قائلاً :

« متى يعود أبي من معمله البَحْرِي ؟ » .

أجابت أمّه بحزم :

« لا أعلم متى يعود ؛ إنه لم ينتهِ بعد من أبحاثه » .

واستطردت قائلة :

« لِمَ تسأل ؟! » .

قال لها وائل بتحدٍ :

« لقد كان أبي يحلم دومًا بالإنسان الذي يستطيع التنفس في الماء مثلما يتنفس في الهواء » .

ـ لن أهدر وقتي معك في جدل سخيف فالأطفال يجب أن يلتزموا بأوامر آبائهم بدون مناقشة ؛ لأنهم يعرفون صالحهم . سأستكمل أبحاثي الآن ، وسوف أعود بعد قليل ؛ وحينئذ تكونان قد فرغتما من تناول الطعام .

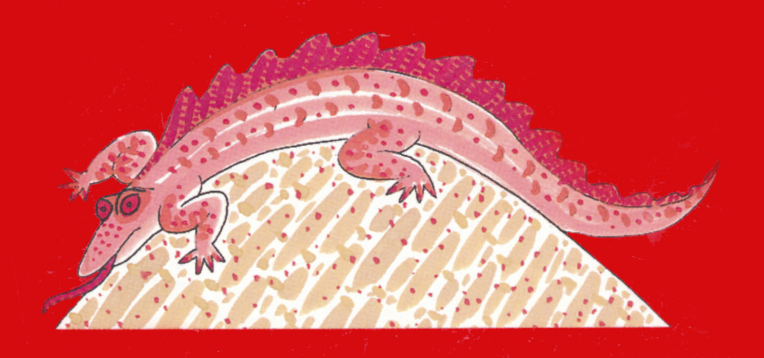
غادرت الأم الغرفة ؛ خطواتها كدبيب أقدام الجنود في عرض عسكري . وغصّ حلق وائل بلقمة حاول أن يبتلعها غصبًا ؛ فلفظها من الفور ، وقال لأخته محفزًا :

« لا بد من أن نعود إلى أرخَبيل الفراشات مرة أخرى عَلّنا نجد زهرة اللؤلؤ ، ونمتصّ رحيقها ، وننام على بَتَلاتها الدافئة ، وربما نجد أيضًا شجرة يانعة نحتمي بظلالها من وهج الشمس » .

قالت رنا بصوت مرتعش :

« سأكون فراشة مثلك . لن أخذلك هذه المرة ، ولن أفترق عنك إلى الأبد » .





((تضرعت "زهرة اللؤلؤ" إلى الفراشات التى تستنزف رحيقها بأن تترك بضع قطرات من الرحيق لفراشة الأميرة الحمراء ، التى كانت تتطلع إليها وهى ترفرف فى السماء ، لكن الفراشات لم تعبأ بتضرعها والتفت الجذور الخانقة حول أعناق بعضها فلفظت أنفاسها فى الحـال بينما إكتفت الفراشات الأخريات بما حصلت عليه من رحيق ولاذت بالفرار من الأرخبيل))



دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)